عبد الرشيد هميسي

ماتشتهيه الروح

حائزة على الجائزة الوطنية للرواية القصيرة 2016

الجزائر تقرأ

عبد الرشيد هميسي

ماتشتهيه الروح

كل تلك المسارات المعوجّة التي سلكتُها أظلمتني وردّتني إنسانا يسكنهُ السّواد ويعُمّه، إلاّ أنها لم تستطع أن تمحو بقعة النور التي بقيت فيّ كشاهدة على إنسانِيتي. أحيانا يحدث أن تتكرم عليك الأقدار فتنقلك من المسارات المعوجّة إلى المسار الصحيح، من الخريف إلى الرّبيع، من خط الشقاوة إلى خط السّعادة، وتُسْقط عنك كل الأقنعة، تاركةً وجهكَ المُعَرّى للحياة والنور.

ما أعجب الأقدار! بسبب منام نُقلتُ من المسارات المعوجة إلى المسار الصّحيح! أحيانا تريكَ الحياة عجائبها في أبسط أشيائِها.

ISBN 978-9931-9414-7-7

كتبنا متوفرة على متجرنا الإلكتروني
dzreads.com

عبد الرّشيد هميسي

ما تشتهيه الرّوح

رواية

الجرائر

الكتاب: ما تشتهيه الروح

النوع: رواية

الكاتب: عبد الرشيد هميسي

ردمك: 978-9931-9414-7-7

الإيداع القانوني: السداسي الثاني، 2017

الناشر: الجزائر تقرأ

8 شارع حساني يسعد، بلدية الجزائر الوسطى

هاتف: 0672301773

إيميل: nashr@dzreads.com

/dzreads

@dz_reads

dzreads.com

الجزائر تقرأ مبادرة شبابية هدفها نشر ثقافة القراءة في المجتمع، منها انطلق مشروع دار الجزائر تقرأ للنشر التي تعنى بالإبداع الكتابي.

شعارنا «نصيبكم بعدوى القراءة»

جميع الحقوق محفوظة ©

إهـــداء

إلى التي وقفت ضد الزّمن والرّيح..

أمـــي.

إلى زوجتي وابني أويس والعائلة الكبيرة

وكلّ من أحبّ..

الفصل الأول

«الزمن لا يفسد ما نكسبه فقط. إنما يجني على المركوز فينا بالفطرة فيشوهه وينحرف به»

عيسى لحيلح.

من رواية كراف الخطايا. ج2.

أجمل الأقدار هي تلك التي لا نستطيع أن نتنبأ بحدوثها، تأتي هكذا في صفنا صدفة، ودفعة واحدة وكأنّ لا مقدِّر وراءها.

ولكن لهذا النوع من الأقدار شرطا، هو أن تكون قادرا وجاهزا معا لأن تخوض التجربة التي ستضعك أمامها وجها لوجه، وإلاّ فلن تكون؛ فالله - حسبما أفهمتني الحياة - يرشّ الناس بالأقدار خيرها وشرِّها، فإن أثبتوا جدارة أعوادهم وخلوص ونفاسة معادنهم، قرَّبهم إليه وخصّهم بفضله، وأسعدهم. وإن أثبتوا عكس ذلك نبذهم عنه وأشقاهم. ويا ويل من أشقاه ربي.

أنا كنت من الذين أشقاهم ربي، لم أكن مباليا أبداً بالرسائل التي كان يبعثها إلي، أو بالأقدار التي كانت تتفقدني وتحاول أن تعيدني إلى الجادّة، لأني كنت عصيا عليها، أتحاشاها وأتجاهلها وأواقع المعاصي وكأن شيئا لم يكن، وأعلم أنّ في قلبي جمرة صغيرة قديمة، حاولتُ أن أطفئها كي أتخلّص من لسعها، لكنها كانت أعمق مما تصورت، كانت جمرة وكنت الرّماد.

أنا (حسن شرقي) في الوثائق الإدارية فقط، و(حسن البايـر)[1] في الحياة والحقيقة. هكذا يحلو لأصدقائي وللكثير من الناس أن يسموني. وذلك لأني بلغت سن الأربعين ولم أتزوج بعد. كنت مشغولا بلذائذي ومعاصيّ لذلك مرّت السّنون من تحتي دون أن أدري. وكلما مرت سنة كثر الرّماد الذي أخلّفه.

أنفقت عشرين سنة في الخمرة والنساء والليالي الحمراء، وفي المخدرات والأزقة الخلفية الضّيقة وطِراد رجال الشرطة. شوّهتُ كلّ البراءة التي منِحَتْ لي في طفولتي، حتى استحلتُ مسخا، وما بقي فيَّ من الإنسان إلاّ شيء واحد، هو أني كنت أحترم كل منْ أشمّ فيه رائحة الله، لا أدري لماذا! ربما ذلك فعل الجمرة التي في الرّماد!

نبهتني لهذه الخصلة عاهرةٌ تعوّدتْ عليّ لكثرة معاشرتي لها، قالت لي وقد كنا نتسكع في الشوارع، مارين قرب مسجد، فخرج الناس من صلاة المغرب وقد أخذوا من نور ربهم الكثير. وقد كنت مطأطأ رأسِي خجلا: «نقلّك حاجة يا حسن، نشوف فيك كِيلّي تْخشم من الناس لي فيهم ريحة ربي، طزْ فيهم وفي أمّهاتهم، كلهم منافقين، يصلوا في الصّف لوّل وفي

1 البايـر: الأصل أنها تطلق على النساء العوانس «بايرة» وهي في العربية من البوار. والأرض البور هي التي لا تصلح للزرع والغرس.

زحمة الكِيران دايرين فينا حالة..»[2]

نهيتها أن تحشر الناس في سرداب واحد ففيهم المخلص وفيهم المتلوّن، ويكفيهم كلهم أنهم يقفون أمام ربهم في اليوم خمس مرّات، يحدّثونه ويتلذذون بالقرب منه، ويسألونه حاجاتهم ويشكون إليه مكارههم. ولكن كلامي ذهب مع الريح، فكأن تلك العاهرة خلقتْ من غير أذنٍ.

عشرون سنة من التشوّه تكفي أن تنسيك الإنسان الذي فيك، تكفي أن تحِلّ مكانه خنزيرا أو قرداً أو أيّ شيء آخر..

أحيانًا يحلو للحياة أن ترسم لك المسارات المعوجة نكاية فيك. أذكر أني حين كنت في العشرين من عمري، بدأت المسارات تعوجّ بي حين تعرفت على (مسعود الضبع) الذي كان يكبرني بعشر سنوات، أخذ بيدي وأراني العالم من شوارعه الخلفية الضيّقة. ذات ليلة أخذني في عجلة على الدراجة النارية، وحين سألته إلى أين المسير؟ قال وابتسامة ماكرة على وجهه: «الليلة راك بش تلقح»[3]. وذهب بي إلى إحدى الشوارع

2 أقول لك شيئا يا حسن: أراك خجلا من الذين فيهم رائحة الله، سحقا لهم ولأمهاتهم، كلهم منافقون يصلون في الصف الأول، وفي زحمة الحافلات يفعلون بنا الأفاعيل.

3 الليلة ستتلذذ.

الخلفية المظلمة ولقينا امرأتين تنتظران، ذهب إليهما، وتمتموا قليلا وأخرج من جيبه أوراقا نقدية وأعطاها لهما، وذهب بنا مسعود إلى بستان قريب به بضع نخلات وأشجار، وكان القمر يضيء الأشياء ويؤنس.

قال لي (مسعود) وهو ينظر فِيّ نظرة الواثق حين حلّ حزام سرواله: «وش تستنّى؟ اصْدمْ متضيعش الوقت، راهن يخدمن بالوقت»[4]. كانت أول مرّة تقف أمامي امرأة جاهزة للوقاع، وأنا الذي كنت أعتقد أن المرأة لغزٌ وسرٌّ مقدس لا يُفضّ. غريزة الحيوان كانت تستيقظ فيّ لحظات وتخفت لحظات أخرى، وقلبي لا يكفّ عن الخِفقان، وتتكرر في مسمعي كلمة (مسعود الضبع «اصْدمْ» فتوقظ الوحش النائم بداخلي.

حضرتني صورة أمي، وصورة أبي، وصور بعض من أحبّ وتخيلتهم غاضبين عليّ مستنكرين الفعل الذي أقدمتُ عليه، لكن الصوَر تلاشت وتفتّت أمام نداء الغريزة وكلمة مسعود (اصدمْ). أدركتُ بعد ذلك أنه إن كانت الغريزة أقوى من مبادئنا وأحب إلينا من فضائلنا، فنحن نقف في طابور العبيد.

همّمتُ بالوطء إلاّ أني أحسست بدوار لذيذ، أحسست أن أطرافي وحواسي انفصلت عني، فتريثتُ قليلا،

4 ماذا تنتظر، لا تضيع الوقت باشر، إنهن يعملن لوقت محدد.

ولكن العاهرة لم تتريث فقد أخذتْ تعانقني وتقبلني وتمرر خديها على خدي كالذي يتمسح بشيء مقدس، وشيئا فشيئا حدث الذي جئنا من أجله.

أثناء عودتنا كنت أركب خلف (مسعود الضبع) على الدراجة النارية وكان يدخن ويضحك ورائحة العرق تفوح منه، قال لي: «واشي، لْقحُت ؟»[5] فقلت له: «لْقحُت». وفي نفسي شرخ كبير قد انفتح لا أدري له انغلاقا. وفي حلقي لذة لكنها مكزوزة. ولم أدرِ أن براءتي احترقت أصابعها وتشوهت.

مرّت الأيام والسّنوات والأقدار، وكررتُ فعلتي تلك عدد الأيام التي عشتها، وذهبت عني الكزازة وبقيتْ اللّذة، واحترقت براءتي حتى آخرها. جرّبتُ كل صنوف النساء، كلهن مررت من تحتي وأخذن أجورهن، كنت أشتهيهن قبل الوطء وأتقذرهِنّ بعده، فقد كان يحضر فِي بالي أني وطئت جسدا وطِئتهُ ألوف الرّجال قبلي وعَلموا عليه، وسيطؤهُ ألوف بعدي؛ فما أنا إلاّ جسد وطِء جسدا وطِئته ألوف أجساد العبيد.

أمّا الخمرة فقد اختلطت بالدم والعظم، فما عاد يروق لي ليل إلاّ وهي في يدي أحتسيها ببطء، وكلما أبطأتُ أكثر تلذذتُ أكثر. أذكر يوم أخذ (مسعود الضبع)

5 هل تلذذت؟

زجاجة ويسكي وذهبنا إلى ذلك البستان وفتح الزجاجة وجرع شيئا منها وأعطاني القارورة وقال: «جَرّب. توْ تنسى الدنيا وربّ الدنيا. حاجة وحدة ما تنساهاش الدبوزة لي في يديك» [6].

ذقت منها شيئاً يسيرا فاستقذرتها فبصقتُ ما تبقى في فمي من مرارتها، واحترت كيف يعاقر الناس الخمر وفيها ما فيها من مرارة المذاق وكريه الرائحة!

قال (مسعود): «هات. الخمر للرّجال».

أحسست حينها أني لست من الرجال، فاغتظت، فشربتها نكاية فيما قال، فدارت بي الأرض، وتقيأت كثيرا، وصحتُ كالمجنون أهذي بما لا يُفهم، وفي الصّباح استيقظت على صداع حاد. كرهت لأجله الخمرة. لكن لذة المغامرة تنسيك الصّداع وغير الصّداع. فعاودت الشرب وعاودني الصّداع إلى أن خفّ وزال.

إلاّ أن الشيء الذي لم يزل هو خوفي العميق من أن تقبَض روحي وأنا في حالة سُكر، فكان يحزّ في نفسي أن أقابل الله سكرانا. فقد كان يتوخ عليّ حياءٌ كثير، حتى فكرت مرّات كثيرة أن أترك الخمرة،

6 جرّب. فلن تخسر شيئا. جرّبْ وستنسى العالم وخالقه. شيء واحد لن تنساه. القارورة التي في يديك.

وهممت أن أفعل، إلاّ أن لعنة المعصية غالبتني فغلبتني، فأكملت المسار المعوجّ الذي اخترته لنفسي أو الذي اختارته لي الحياة وما أوهاه.

أمّا المخدرات فقد ذقتها حين أغراني (مسعود الضبع) بها، وقال بأنها ستنقلني من هذا العالم إلى عالم آخر لا جاذبية فيه ولا قيود. عالم حالمٌ سابحٌ، أفعل فِيه ما أشاء دونما رقابة أو قوانين، وسأكون فيه ملكا أو سلطانا لا تعلو على كلمته كلمة، ولخصّ كلامه بأن قال: «تِحِسْ روحك فرعون»[7].

جرّبت فوجدت الذي قاله صحيحاً. فقد تَفَرْعَنْتُ، وأمرتٍ ونهيت، وفعلت أشياء لا يفعلها المجنون، وتلذّذت كثيرا بذلك العالم الذي يتفرقع مثل البالونة حين ينتهي مِفعول المخدّر. ولا أشاء لذلك العالم أن ينتهي فكنت أصِل المخدِّر بالمخدّر فلا أنزل إلى عالم الناس إلاّ بعد أسبوع أو أكثر، ثم أعاود السّفر إلى عالم فرعون، مثل متصوفٍ عاف عالم المُلْك فهو تائه في عالم الملكوت.

كل شيء في ذلك العالم ينفرط من يدي، فكم ضاجعت من عاهرة ولا أدري شكلها ولا لونها ولا أين ضاجعتها، وكم سُرقت مني أموالي بعد كل ليلة ولاٍ أدري كيف سُرقت ولا مقدار ما سُرِق. كنت عِقْدا

7 تشعر أنك فرعون.

انفرطت حباته وتبعثرت وسط زحام من غجر.

ذات مرّة حين كنت صاحيا لقّبتني إحدى العاهرات بالشاعر. فسألتها عن سبب ذلك. فقالت أني كنت أقول شعرا طوال الليلة التي بتُّها معها! والغريب أن عاهرة أخرى أخبرتني أني عفت مضاجعتها بعد أن حميَ الوطيس. فلما سألتني عن السّبب أخبرتها أني «أخاف الله» وهي لا تدري لحدّ الآن من أين سقطت عليَّ التقوى في ذلك الوقت بالذات، وأنا لست محلاً لها؟!

ولازلت أستمع إلى أخباري وأحوالي من العاهرات حين أكون في عالمٍ فرعون. فوجدت نفسي مزيجا من الشخوص وخليطا من الوجوه. فأنا الشاعر والتقيِ والمنافق والغضوب والوديع والجاهل والعالم.. ووجوها لا أعرف لها أسماءً. و يا ويلي من نفسي الشقية المتشظية إلى وجوه. أدركت أنه إذا أراد الله بعبدٍ شقاوة، قلّبه بين الأقنعة.

كل تلك المسارات المعوجّة التي سلكتُها أظلمتني وردّتني إنسانا يسكنهُ السّواد ويعمُّه، إلاّ أنها لم تستطع أن تمحو بقعة النور التي بقيت فيَّ كشاهدة على إنسانيتي. أحيانا يحدث أن تتكرم عليك الأقدار فتنقلك من المسارات المعوجّة إلى المسار الصحيح. من الخريف إلى الرّبيع. من خط الشقاوة إلى خط السّعادة. وتسْقط

عنك كل الأقنعة، تاركةً وجهك المُعرّى للحياة والنور.

ما أعجب الأقدار! بسبب منام نقلتُ من المسارات المعوجة إلى المسار الصّحيح! أحيانا تريك الحياة عجائبها في أبسط أشيائها.

*****

استيقظت ذات صباح على منام، والعادة أني لا أرى في نومي إلا الكوابيس التي تزورنيَ كلّما عدت سكران. أمّا غير ذلك فكان نومي كقطعة سوداء أبدؤها حين أغمض عينيّ وأنهيها حين أفتحهما.

في المنام رأيت رجلا عليه نور. يقول لي: «بلّغْ إسلام المرادي: «كل شيء في حينه. الله لا يهمل أحدا. حان حين القدر. جفت الأقلام وطويت الصُّحف» الحراش –الجزائر العاصمة».

حين استيقظت فجرًا لم يقع في ظني أني رأيت منامًا، بل شطر حُلم أخطأ مساره فتعثر بي فلم آبه له. وأكملت نومي حتّى الظهيرة.

الغريب هو أن الحلم نفسه تكرر معي سبع مرات متواليات، وكأن الحلم يلِحُ عليَّ بالدخول لعالمي. ولكني لستُ الذي يُدخل الأشياء الطّاهرة إلى حياته، فقد كنت

مشغولا بجمع كل ما هو نجس.

أعرضت عنه كما يُعرِض الرَّجل عن قذارة وينفرُ منها. إلى أن لقيت (عبد الحليم السَّعدي) وقد كان زميلي أيام الدراسة. وكنّا نشهد له بالأخلاق وحسن السِّيرة. فتجاذبنا أطراف الحديث. فحدثته عن الحلم الذي تكرر معي سبع مرّات. فأصغى إليّ كما أصغى يوسف عليه السلام إلى رفيقيه في السجن. وحاول أن يفهم الحلم على غير ظاهره. لكن محاولاته كانت بعيدة من المرمى واكتفى بأن قال: «هذا منام وليس حلمًا». فسألته عن الفرق بينهما فقال:

– المنامِ رؤيا صالحة يتحقق في الحياة إن آجلاً أو عاجلا. أمّا الحلم فهو محض مكبوتات نفسية وجدت حريتها أثناء نومك فساحت كما الماء.

– وكيف عرفت أنه منامٌ وليس حلمًا؟

– عادة ما يتكرر المنام. ويحمل في أحشائه رسالة. ويكون ملغزا أحيانا.

وحين طلبت منه للمرّة الثانية أن يحاول فهم المنام الغريب الذي سقط عليّ من السماء. قال في كثير من السذاجة:

بلغ إسلام المرادي: «كل شيء في حينه. الله لا يهمل أحداً. حان حين القِدر. جفت الأقلام وطويت الصُحف». (وكان يقصد أن أنفذّ ما جاء في المنام).

– وهل أهيم على وجهي أبحث عن رجل في الجزائر العاصمة لأقول له بضع كلمات لربما تركني واقفا وانصرف ظنا منه أني مجنون من موضة جدِيدة. هذا إن وجدته. وكيف لي أن أغربلِ الحراش زقاقا زِقاقا بحثا عن رجل لا أعرف عنه شيئا. ولا أدري هل خلِق أم لم يخلق أصلا.

وودّعت (عبد الحليم السَّعدي) بعد أن أيقنت أن ضالتي ليست عنده. ورحت ألتمسها عند بعض الشيوخ. زرت المساجد والزّوايا والتكايا. أحمل في كفي منامًا عنيدًا لا يكفّ عن ملاحقتي. أضعه بين يدي الشيوخ علّهم ينقذونني منه. واضطررتُ في كثير من الأوقات أن أصلي نفاقا. بوضوءٍ وبدونه. كي أظهِر للشيخ الذي أقصده صورة حسنة عني فيُحسِن استقبالي. ولكن كل الشيوخ الذين زرتهم لم يذهبوا بعيدًا عمّا قال (عبد الحليم السَّعدي). قال لي أحدهم: «أظن أن هذا منام. أي رؤيا والرُّؤيا الصّالحة جزء من ست وأربعين جزءٍ من النبوة» وكنت أقول في سرّي «وما علاقتي بالنبوة. كل الذي أعرفه عنها أن هناك نبي اسمه محمد أرسله الله ليهدي الناس بالإسلام إلى الحق وأن يزكي أخلاقهم

ويطهرهم من الأرجاس، وأنا أؤمن به، ولكني مغموس في الأرجاس حتى أذنيّ، بل أنا الرِّجس ذاته، كلّ الذي جاء به محمد خالفته، فما علاقتي بالنبوة كما يزعم الشيخ؟!»

وقال لي شيخ آخر بعد أن قلّب عينيه في السماء كأنما يستمطرها فهمًا للمنام الذي أربكه: «المنام يا ولدي . عادةً يُخص به الصالحون وأظنك منهم، والذي فهمته من منامك أنّ خيرا سيصيبك...». كنتُ مُصْغٍ له حين سكت، أمهلته دقيقة كي يكمل كلامهُ لكنه ظل ساكتا، ففهمت أن فهمه انتهى، وأعْجَزه أن يخوض في التفاصيل فشكرته على ما قال وانصرفت.

عرضت منامي على شيوخ كثُر فقلّبوه على كل وجهٍ عسى يجلبوا منه فهمًا يرضيني، ولكن كلّ محاولتهم كانت متشابهة، منقوصة، لا تشبع العقل ولا تسْكِن الروح. فبقيتُ معلقًا في السّماء كالذي توقف به المعراج؟، فلا هو في الأرضِ يعافرها ويكدح كما الناس، ولا هو في السماء يتنعم بنور الله وألطافه وأسراره.

إلى أن زرت الشيخ (عباسي)، فهو الذي أنقذني مما أنا فيه حين جلست إليه وحكيت له ما حكيت، وكان يستمع إليّ ويتمايل يمنة ويسرة كما سنابل القمح

تتمايل إن مستها نسمة خفيفة، وكانت عيناه مُسرَّحتان في الأفق البعيد، كأنما تستحلبان منه الأسرار، حين أكملت حكايتي تنهّدَ وسكت قليلا فظننتُ أن تفسير المنام أعجزه كما أعجز غيره، لكنه ثبّت فيّ عينيه المليئتين بالنور، فأحسستُ أنهما غارتا فيّ واستباحتا أسراري وما خصَصْتُ به نفسي، فكل شيء مكشوف أمامهما فتلبسني الحياء وأحسست بالصِّغار. قال:

«يا ولدي، العين رسول القلب، كلّ الذي في قلوب الناس يطفو في أعينهم إنْ قذارة وإنْ طهارة، وأنا حين رأيتُ عينيك، رأيتُ فيهما الحرائق والخطايا، وكأنه لم يبق فيهما شيء لنور الله. عيناك يا ولدي مظلمتان، كثيرتا الرّماد، تشوهتا من وقعِ الخطيئة على الخطيئة، إن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على أن قلبك قد تخمّر ونتِنَ وفاحت رائحته في عينيك.

أمّا المنام فأراه والله أعلم منقذك مما أنت فيه، أحيانا يا وليدي ينقذنا الله من أنفسنا حين لا نقدر عليها فيخطفنا من المسالك المعوجّة إلى المسار الصحيح، وذلك بأن ينفث في قلوبنا حُبّهُ أو الخشية منه، وقد يكون ذلك بسبب موقف ما أو نصيحة أو منام أو أي شيء آخر. تتعدد الأسباب والمسار واحد، والله وأحد».

سكت قليلا وعاود النظر إليّ وقال:

«سَافِرْ يا بُني، سافرْ إلى ربك فأظنه اشتاق إليك، وتفقدك في المسار فلم يجدك فأحبَّ أن يراك فيه، سافرْ فبالسفر يبدّل الإنسان حاله بحال أخرى. وبالسفر نفهم أشياء انغلقت علينا ونحن ماكثون في أوطاننا، ولا تنسى أن تسافر بقلبك وروحك، فإنك إن سافرت بجسدك وحده جنيت المشقة وحدها. وما البشر كلهم إلا مسافرون شاؤوا أم أبَوْا، ضعنوا أم مكثوا لأن الحياة في أصلها سفرٌ».

سكتَ وانصرفتُ.

في الحقيقة لم أفهم كلام الشيخ (عباسي) كُلَّه، فقد أشكل عليّ فهم بعض الجمل التي تعالت على فهمي إلا أني أحسست أنّ صدقا ينضح من كلامه. لذلك خرجت من عنده مرتاحا. وقانعًا بفكرة السَّفر إلى الجزائر العاصمة علّني أجد ضالتي كما قال الشيخ.

انتبهت لمشكل لم أفطن له بسبب كلام الشيخ (عباسي) الذي سَحَرَني وخدّرني، وهو ماذا أفعل للخمرة وللكوكايين اللذين لا أستطيع أن أصبر عليهما أثناء سفري وبحثي عن (إسلام المرادي). أأبحث عنه وأنا مخمورٌ مخدَّرٌ؟! وهل أسافر إلى ربي الذي -اشتاق إليّ- كما قال الشيخ مخمورًا مخدّرا؟! أيصحّ أن أقابل اشتياقه بالخطيئة والدنس؟!

قررت في الأخير أن أتخلى عن فكرة السَّفر نهائيا، لعجزي عن ترك الخمرة والمخدرات من جهة، ومن جهةٍ أخرى لحيائي من أن أذهب إلى إلهي مخمورًا مخدّرا وقد مَنَّ عليّ بمنام لا يُمَنُّ به إلاّ على القلائل من الناس.

ولكن الله لم يتركني لقراري هذا فقد تكرر معي المنام أربعَ عشرة مرّة. فوجدتني أرتب ملابسي في حقيبتي مُكرَهًا.

الفصل الثاني

«أجمل ما في الصدفة أنها خالية من الانتظار»

محمود درويش.

حين وصلتُ إلى العاصمة ونزلت من الحافلة ورأيت أسراب البشرِ بألوانهم وأشكالهم المختلفة، صفّرت صفيرًا طويلا، وأدركت حينها أن مهمتي شاقة، وأنه لو أوكل إليّ حفر بئر بمِخْيط كان أهون عليّ من البحث في أسراب الناس عن رجل منامي قد يكون وقد لا يكون، توقفت عن التفكير فجأة وتساءلت: هل ما أقوم به صواب؟!! بضع كلمات في منام على بضع كلمات من بعض الشيوخ تدفعني إلى أن أسافر المئات من الكيلومترات بحثا عن مجهول!! وهبْ أني وجدته، سأقف قبالته كالأبله وأقول له تلك الجملتين وأنصرف. لربما ظن أني إرهابيٌّ أبلغه شيفرة ما! ما الفرق بين الجنون وبين ما أصنع؟! وهكذا اتسعت متاهتي وضاقت همتي...

شيء واحد ثبّتني حين تأزم فكري واستهنت بمهمتي هو كلمة (الشيخ عباسي): «سافرْ يا بني، سافرْ إلى ربّك، فأظنه اشتاق إليك وتفقّدك في المسار فلم يجدك فأحبَّ أن يراك فيه». حين تذكرت هذه الكلمة اعتراني شيء من الحياء، فطرحت استهانتي وجدّدت همّتي واتجهت نحو الحراش وفنادقها، متسائلا: ما

الأسرار وما الأقدار التي يخبئها لي هذا المكان؟!

حين كنت راكبا في سيارة الأجرة متجها إلى الحراش كان راديو السيارة مفتوحًا، وكانت أغنية (دحمان الحراشي) «يا الرّايح» تصلني بوضوح تام، وكأنه كان يخاطبني ويذكرني بمآلات الأسفار، كان صوته مبحوحا رائعا، أضفى على الكلمات التي يقولها قداسة وحكمة، وكأن الكلمات التي تخرج من فمه قادمة من زمن قديم أو كأنها جرّبتْ كل الخطوب والأوعار، واستطاعت أن تخرج من شفتيه لتستقر في أعماق القلب والروح.

«يا الرّايح، وين مسافر، تروح تعيا وتولّي

شحال ندموا العباد الغافلين قبلك وقبلي

شحال شفت البلدان العامرين والبر الخالي

شحال ضيعت أوقات وشعال تزيد مازال تخلي

يا الغايب في بلاد الناس شعال تعيا ما تجري

بيك وعد القدرة ولّى الزمان وما نتا تدري

علاش قلبك حزين وعلاش هكذا كي الزوالي

ما تدوم الشدة وإلا بطيت أعلم وأكتب لي

ما يدوموا الأيام ولا يدوم صغرك وصغري

يا حليلو مسكين اللي خاب سعدو كي زهري»

كنتِ أستمع إليها والروح ساكنة كقاع بئر سحيق، كأني ألقّى الحكمة من شيخ جرّب كلّ شيء.

دخلت فندق (الجزائر) قذفت بحقيبتي أرضا واستلقيت على السرير وأفردت ذراعي كنسْرٍ صاف، وأخذت أفكر كيف سأبدأ البحث عن صاحبي ويا ويلي...

أأقصد البلدية وأطلب منهم قوائم أسماء الساكنين في الحراش وأتفقدِهم واحدًا واحدًا؟ إن هذا لشيء ممل، ثمّ من أنا حتى أعطى قائمة الأسماء وبأيّ صفة؟! ثم قررتُ بعد شيء من التفكير أن أطلبه في المقاهي، والمساجد والأندية ودور الثقافة فلابُد أن يكون إمّا مُدخِنا أو مصليًا أو رياضيًا أو مثقفا، وإلاّ سأطلبه في الأسواق فقد يكون من هواة التسكع، وهذا هو الأمر الصّعب، أن تبحث عن رجل لا تعرفه، في سوق لا تعرف فيه أحدًا، كالبحث عن درهم سقط من قافلة في صحراء.

في الصباح نزلتُ إلى الشوارع أبحث عن (إسلام المرادي) وكأنه مُتهم في جريمة، أنقّل أسئلتي من مقهى إلى مقهى، وكلما سألت نادلا أو زبونا حرّك بؤبؤي عينيه يمنة ويسرة، وابتسم لي ابتسامة قصيرة وقال: «لا سامحني خويا... ما نعرفوش» وأضاف «سقسي مولا القهوا كاش ما يعرفوا»[8].

وفاجئني مرة شيخ كبير أصلع الرأس متهدل الوجنتين، وقد ترهل الجلد الذي تحت عينيه وتكوّم حتى ليَظن الناظر إليه أنه يملك تحت عينيه عينين جاحظتين مغمظتين يدّخرهما لزمن قادم، كانت نظراته باهتة زائغة لا تستقر، وحين سمع مني كلمة (إسلام المرادي) انتبه، وتيقظ كأنما ذكرت له عدوا، وقال دون أن يحرك بؤبؤي عينيه: «حبيبي إسلام.. حبيبي... أعرفه» ظننت أني قاضٍ أستوجبه؛ فقد كان يكرر كلامه ويؤكده.

ليته سكت عند تلك الجملة، لو سكت لانتهت قصة البحث عن (إسلام المرادي) في هذا المقهى الشعبي، لكنه أضاف «إسلام البرّادي... من لا يعرف إسلام البرّادي اسأل أي طفل في أي شارع يهديك إليه...».

قلت له: «المرادي يا حاج.. المرادي».

8 المعذرة يا أخي لا أعرفه. اسأل صاحب المقهى ربما يعرفه.

قال: «قلت لك البرّادي.. البرّادي.. البرّادي هل ستعرفه أكثر مني. هبلِتْ الناس!!»

حينها سألتُ الله أن يرزقني مناما يغير فيه الميم باءً، ولكن الأقدار شاءت أن تبقى الميم في مكانها لتعذبني كما تشتهي.

نقّلت أسئلتي وخيبتي من مقهى إلى مقهى حتى أتممت كل المقاهي، وعاودت الرجوع إلى العامرة منها، لأقطع الإلحاح الذي يخزني كشوكة من حديد.

تعرفت على لهجة الحراشيين وعلى منطقهم الذي يفكرون به. وعلى أمزجتهم التي تتقلب بسرعة فهي كثيرة الطقوس، لكن لهم أفئدة صافية كمرآة مجلوّة، يعطونك أسرارهم وما علّمتهم الأيام لمجرد أن يطمئنوا لجانبك، ويلمسوا فيك شيئا من الصدق، ولو أنهم عرفوك منذ بضع دقائق أستطيع أن أصفهم بقولي: «هم قوم محتاجون إلى أذن مُصغية».

بعد أن انهيتُ المقاهي، قصدت المساجد وتكررت معي حكاية الصّلاة بوضوء وبدونه. كنت حين تنتهي الصّلاة أتمتم في صوت خفيض ببضع كلمات كنت حفظتها في صغري عندما كان أبي يصطحبني معه إلى المسجد، وحين ينفضّ المصلون عن المسجد أتوجّه

إلى إمامه وأجلس قبالته فأقطع عنه ذكره. فيبتسم في وجهي. فابتسم وأسلم عليه وأسأله حاجتي. فيحرك بؤبؤي عينيه يمنة ويسرة. ويبتسم قليلا ويقول: «لا. مانعرفوش يا وليدي» «شوف المسجد الآخر الذي هو في حي...» أشكره وأنصرف.

قلّبت الخطو من مسجد إلى آخر حتى أحصيتُ المساجد مسجدًا مسجدا. ولكن ضالتي تتأبى عليّ كأن بي جربٌ.

في المساجد رأيت ألوانا من المصلين: الملتحي والحليق والخاشع واللاّهي، والمسرع الذي يقضي الصلاة كأنها دين في رقبته. والبطيء الذي كأنه ما خلق إلا لأن يصلي. والفقير الذي بخلت عليه الحياة. والغني الذي انبسطت له وانقادت، والصّغير الذي فتح للحياة جرابه. والكبير الذي كاد جرابه أن يمتلئ. كلّهم جمعهم صف واحد وتكبيرة واحدة. وتسبيحة واحدة ورب واحد.

لا أخفي أني تذوقت شيئا من الصّفاء حين أدمنت المساجد. وشعرت في أحايين كثيرة بشيء من السلام والتصالح مع نفسي ومع الناس والأشياء، وشابني شيء من الهدوء الوجودي.

لحدّ الآن أنفقت اثني عشرة يومًا ولا شيء عن هذا الرّجل المنامي، خمسة أيام في المقاهي وسبعة أيام

في المساجد قلت في نفسي مُتَصابرًا «الشغل المليح يبطأ»[9].

أما الأندية فلم تأخذ مني الوقت الكثير فقد غربلتها في يومين.

حين قصدت دار الثقافة توجهت إلى مكتب الاستقبال أسأله عن صاحبي، نظر فيّ قليلا ممتحنا ذاكرته في الاسم الذي ذكرته له مرتين. بعد بضع ثوانٍ حرك بؤبؤي عينيه يمنة ويسرة ثم ابتسم وقال: «مانعرفوش اسمحلي...» في ذلك الوقت بالضبط كان رجلا بدينا على عينيه نظارة سميكة لها إطار أسود تكاد تخفي عينيه الصغيرتين اللتين تشبهان عينيْ فأر الصحراء. وهو إداريّ في دار الثقافة في مصلحة النشاطات، علمت ذلك من كلامه مع صاحب الاستقبال. صافحني وقال: «أنا أعرف إسلام المرادي». لحظتها توقف بيّ الزمن، وقلت له: «إسلام المرادي بالميم ليس بالباء». نظر فيّ نظرة من ينظر إلى أبله، فانتبهت إلى كلامي.

أحيانا تمنحك الأقدار أكثر مما تطلب أو تتوقع، كأنها تُريك كرمها أو كأنها تحاول أن تعيد ثقتك بها.

ثم قال صاحب النظارة السّميكة: «ولكن إسلام

9 مثل جزائري: العمل الجيد يُبطئ.

المرادي امرأة» حينها أحسست أنّ داخلي طبلاً عظيما من نحاس ضربه زنجي متعرق بمطرقة من حديد فأخذ يدوّي..

وراح صاحب العينين الصغيرتين يعرّفني بها، وأنا أنظر في عينيه وهما خاليتان من أي معنى كأنهما خرزتان: «إسلام المرادي آنسة، في الثلاثين من عمرها، تزورنا أحيانا في دار الثقافة لتشهد نشاطا أو لتقيمه فهي صاحبة جمعية تهتم بالأيتام، تسكن قرب فندق (الجزائر)، جادّة وكتومة، تعمل في صمت، لا تأبه للإعلام أو الشهرة، بل تنفر منهما نفور السليم من الأجرب..

المهم إنها بسيطة جداً، تحبّ العزلة وعملها هذا يعني لها الكثير، فقد تركت وظيفتها لأجله.

وبقية الأشياء ستعرفها بمفردك»..

ضبط لي عنوانها وانصرف تاركًا لي طقطقة قدميه على الأرض، ورُحْتُ أقلّب عيني في السماء، وأنا مملوء بالحيرة والأسئلة. كانت الأسئلة تكثرِ وتكبر وتتكور وتتفرقع كفقاعات رغوة الصابون إذا نفِخ فيها بقصبة.

«هل هذه هي الذي أبحث عنه؟ وما علاقة ذلك المنام بمربية أيتام؟ ولماذا أنا بالذات أبعَث رسولا لمربية الأيتام هذه؟ ألستُ داخل حلقة من عبث؟ أمْ تراني

على عتبة الجنون، ولا أدري؟ ويلي منيّ ومن المنام ومن الحراش..»..

استسلمت للواقع واستيقظت فيَّ فراسة كانت سابتة. فأحسست أن عجائب تنتظرني حين علمت أنَّ الذي أتيت من «وادي سوف» لأجله امرأة، وشعرتُ أني عالقٌ في متاهةٍ، كما يعلق الذّباب في نسيج العنكبوت.

سبقتني قدماي إلى الفندق، وفي الطريق إليه وأثناء اضطجاعي على السرير كنت أفكر، كيف أبدأ لها حكاية المنام؟

*****

أجمل الأشياء هي التي تعثر عليك حين كنت تبحث عنها. فحين خرجت من الفندق صباحًا قاصداً الذهاب إلى العمارة التي تسكن فيها (إسلام المرادي)، وجدت في الطريق عجوزا مغشيًا عليها وبقربها امرأة تحاول إيقاظها ولكن العجوز لا تستجيب، أسرعت إليهما، وأسندت ظهر العجوز على حائط وضربتها ضربًا خفيفا على خديها. ولمّا لم تفق أحضرت لها قارورة ماء ورششتها بالماء حتى بدا أنها تستيقظ، وسكبتُ شيئا من الماء على رأسها حتى استيقظت، وأخذت تتأملني كما يتأمّل الضمآن ساقِيه. شكرتني بكلام يغلب عليه التنهد، ولما أرادتْ أن تقوم بمفردها عجزت

فأسندتها من شقٍّ، وأسندتها المرأة التي معها من شقها الآخر، ودبينا بها دبيبا. كان منزلهم قريبًا، وكانت العجوز طول الطريق وهي تنظر فيّ هنيهة وتنظر في التي معها هنيهة كأنها تقسم علينا نظراتها بالعدل كي لا نظلم.

حين أوصلتهما إلى بيتهما، وبدا لي أن العجوز قد تحسنت حالتها، هممت بالإنصراف. لكن العجوز استبقتني وأقسمت عليَّ أن أجلس وأذوق شيئا من ملحهم. فجلست والحياء ينضح من جبيني.

حكت لي عن مرض السُّكري الذي نخر جسدها، وردّها واهية، وعن ضغط الدّم الذي يُغشِيها أحايين كثيرة وبسببه كفّت عن الخروج إلى الأسواق وقضاء الحاجات كي لا تتعرض لمفاجآت هي في غنى عنها.

وحين تجاذبنا الأصول عرّفتُها بنفسي أني من ولاية الوادي، ففرحت كثيرًا لأن جدّتها لأمها «سوفية»[10] فأخذت تحدثني عن «وادي سوف» التي ذهبت إليها مرة واحدة في طفولتها سنة 1967م وعن الأشياء التي رأتها هناك، الإبل في شموخها، والرمال المذهبة الصّافية ذات الأبراج التي ظنت لشساعتها أنها لا تنتهي. والشرشمان[11] الأملس المخطط بالبُنّي وغير المخطط

10 نسبة لمنطقة وادي سوف الواقعة في الجنوب الشرقي للجزائر.
11 السقنقور وهو نوع من السحليات يعيش في الصحراء.

والسّحلية، والورَن، والعقرب الأصفر الملعون، والأحراش التي يحتطب منها البعض، والسّوق الشعبي الذي يضع فيه الناس بضاعتهم على الأرض دون ترتيبٍ وديكور وزخرفة وأصوات الباعة المتداخلة التي تبين أحيانا وتنبهم أحايين كثيرة. والأفراح وما فيها من أكلات شعبية كالكسكس «بالدّهان» و«التشيشة»، وما فيها من رقص، كرقصة الرجال «بالمكحلة»[12] في «الزرنة»[13] أو رقصة الخيل الذي يخبط أقدامه الأربعة متناغما مع إيقاعات الدف. وكان يُحيرها «الزرناجي» الذي لا يكف عن النفخ في قصبته بوجهٍ محمر وأوداج منتفخة، وكأن سائر جسده تحول إلى رئة.

وأعجبتها النخلة صامدة شامخة غير مبالية بالريح وعويلها، تصعّد إلى الشمس. تظلّ الناس وتعولهم وهي زاهدة في عطاياهم. وحدثتني عن المنسج وخيوطه الدقيقة المرتبة ترتيبا عموديا وكيف تفني السوفيات أعمارهن وراءه كي تصنع منه الأفرشة والبرانيس والقشاشيب، ليبعْنها كي ينقذن أبناءهن من الجوع. وقالت كلمة وصفت بها حالة السوافة في ذلك الوقت: «السّوافة في تلك الأيام كانوا يكدّون لا ليتمتعوا بما حصّلوه، بل لينقذوا أنفسهم من الجوع فقط».

12 بندقية لكنها ليست للصيد أو القتل، بل للأفراح.
13 فلكلور شعبي خاص بالمنطقة.

وكان قد أعجبتها المساجد ذات الصُّمع القصيرة وباحاتها المملوءة بالرّمل المذهّب وحيطانها المبنية بالجبس والأحجار ومنظر الأطفال المحلوقة رؤوسهم والمُسْمَرّة جلودهم بفعل الشمس الحارقة، وهم يقرؤون القرآن في ألواح خشبية مكتوبٌ عليها بعض الآيات باللون البُني الناصع بخطٍّ ثعلبي قديم. وقد توسطهم شيخ بيضاء لحيته يقال له «نعمسيدي»[14].

أما بيت جدتها فقد كان ككل البيوت، له باحة فسيحة من الرّمل يتوسّطها بئر ونخلتان. أما الغرف فقد كانت قصيرة الحيطان وغرفة واحدة فسيحة لها ثلاثة مداخل دون أبواب تسمى «الصّبَاطْ» مخصصة لفصل الخريف، فصل الغلّة.

أمّا الباب الخارجي لا يغلق فهو مفتوح أبدًا «السُّوافة ماكانوش يسَكّروا في ديارهم، ماعندهموش حاجة يخافوا منها»[15].

أمّا النِاس هناك، فقد كانت سِرائرهم على ألسنتهم وفي أكفهم لا يوارون منها شيئا، وكانوا على خشونة عيشهم كرماء كالغيث، طيبين، يرضون بالقليل، ويرضون أن تقع الأذية عليهم بدل أن تصدر منهم فهم

14 أصلها: نعم سيدي. وتقال لإمام المسجد.

15 أهل سوف لم يكونوا يغلقون أبوابهم، لأنهم لا يخافون من شيء.

يقولون «بات على غيض وما تباتش على ندامة»[16].

أكثر مهنهم الفلاحة «الأرض والفرس يا وليدي يعلمان الإنسان البذل والعطاء دون مقابل، لذلك كان أجدادك كرماء». فأخبرتها أن كثيرا مما قالته غدا فلكلورًا لا يوجد إلا في المتاحف أو في المناسبات.

وحدثتني عن بعض مغامراتها مع النخلة، فقد ذهبت يوما مع بنات خالاتها وابن عمها التي كانت معجبة به، إلى بستان زوج جدّتها، وأكلوا «البلح» المتساقط من النخلة، وحين كان ابن عمها منشغلاً بأشياء أخرى في البستان، تنافسن على الصعود إلى النخلة، والرهان هو أن التي تصعد أكثر هي التي تتزوج ابن عمها وكان اسمه (حمودة) فكلهن صعدن درجتين أو ثلاثة إلا هي أخذها الحماس فوصلت إلى المنتصف، ولكنها حين نظرت إلى الأسفل ذُعِرَتْ وأخذت تصيح، فسمعها (حمودة) فهرع إليها يجري وصعد لكي ينزلها، ونجح في أن ينزلها قدْرَ «كرنافتين»[17] وفشل في الباقي؛ لأنها كانت متشنجة كثيرا فسقطا من الشجرة فكان ظهره على الأرض وهي فوقه، فكسِرت يده، وسلمتْ هي، وأخذت تثير غِيرة البنات بعد ذلك. «شفتوا حمودة راجلي وش

16 بتْ في غِيض، ولا تبتْ في ندامة.

17 الكرْناف: أصول تبقى في جذع النخلة بعد قطع السّعف.

دار على جالي..»[18]

ولكن الحياة لم تستجب لرهانها، فقد توفي (حمودة) في بدايات شبابه بسبب حادث سيارة، بينما تزوجت هي من رجل آخر، وأنجبت هذه المرأة التي كانت معها حين أغمي عليها.

– وما اسمها؟

– اسمها إسلام بنت سعيد المرادي

لم أدرِ أني كنت أبحث عن الأسد وأنا في عرينه!

وهمّت أن تحدثني عن ابنتها إسلام، إلا أن إسلام قدمت تحمل «صينية» الأكل، ودعتنا إلى غداءٍ مبكّر.

حين كنت آكل مع الحاجة نعيمة كنت أسترق النظر إلى إسلام وهي تقرأ كتابا، وأحيانا أحس أن الحاجة نعيمة تسترق النظر إلي برهة ولها برهة. وكنت أقول في سرّي «لِم خصّت هذه المرأة بمنام جرّني من وادي سوف إلى العاصمة؟» وبطول النظر إليها استطعت أن أحدد قسماتها بوضوح، هي بيضاء البشرة، وجهها أميل للطول منه إلى الاستدارة، عيناها بنيتان، ليستا بالواسعتين ولا بالضيقتين، في أنفها خنسٌ، وأسنانها بيضاء كأنهن قطع من العاج. لا أقول إنها جميلة فاتنة، ولكن في وجهها شيء جاذب

18 رأيتَ حمودة زوجي ماذا فعل لأجلي.

يمنعك أن تحوّل وجهك عنها، كأنه السرّ. عرفت أن الحاجة نعيمة لاحظت اهتمامي بإسلام حين بادرتْ بالقول: «إسلام ابنتي تقرأ كثيرا، كأن القراءة في حقّها فرض، تؤثم إن تركته». وما كان مني إلاّ أن أثنيت على فعل القراءة لكونه شيء أساسي في الحياة.

واتسع بنا الكلام في القراءة، والغريب أن إسلام لم تشاركنا الموضوع وهي أساسه، فوقع في ظني أنها ثقيلة الرّوح، أو أنها لا تجيد الكلام، أو أن في لسانها لُكْنَة، أو أي عيب، وهي تستر عيبها بالقراءة والسّكوت.

ولكي لا أكون ضيفا ثقيلاً، عزمت على الانصراف، فاستبْقتني الحاجة نعيمة، ولكني تعللت بالمواعيد التي تنتظرني، ولا مواعيد. رافقتني حتى الباب وقالت: «لابُدّ أن تزورنا مرّة ثانية». وما تركتني حتى أخذت مني وعدا، وكنت في سرّي أقول: «لابُدّ أن أعود إليكم وإن لم تطلبي مني ذلك».

حين عدْتُ إلى الفندق فكّرت طويلا كيف أفتح لي بابا أدخل منه إلى إسلام المرادي، وأبلغها المنام وأنصرف. وانتهيت إلى حيلة يسيرة، وهي الادعاء بأني صحفي من جريدة التحرير وقد كلِّفتُ بتحقيق صحفي مع مربية أيتام، وإن سألتني لماذا لم أخبرها لأوّل لقاء بها، أتعلل بالموقف الحرج الذي وجدتها وأمها عليه. فهذا

الذي منعني من أن أخلط الأشياء بعضها ببعض. وحين أقضي معها بضعة أيام، وتمدّ لي حبائلها وأمد لها حبائلي حينئذ أخبرها بالمنام وأصله وفصله وأنصرف عائدًا إلى بلدتي، وإلى لذائذي ونسائي، فقد اشتاق الجسد إلى غاراته وحروبه.

بعد ثلاثة أيام، عدت إلى الحاجة نعيمة أحمل شيئا من الفاكهة، وعللت زيارتي بتفقدها والاطمئنان على صحتها، وحين وجدتها لوحدها في البيت وجِمت، وأخذتْ تحدثني عن ابنتها إسلام، كيف ولدتها وماذا حلمت قبل أن تلدها، وكيف ربتها، وكيف عزفت إسلام عن الزواج لأجل هوايتها التي آمنت بها حتى العظم «ربي يهديها، كنت حابه نشوف أولادها ونِتْهنّى عليها، الله غالب»[19].

وبعد ذلك تحوّلت إليّ وسألتني عن ظروف الإقامة في العاصمة وعن مدى إعجابي بها، ثم دعتني إلى الإقامة معهم للأيام المتبقية لي بدل إقامة الفنادق التي تكلّف كثيرا وتمِلُّ كثيرا، ولكني انحرفت بها في كلام آخر دون أن تسمع منّي ردًّا وحين سألتني عن مهمتي التي قدِمت لأجلها أحسستُ برعشة تسكنني وقلت لها بعد شيء من التلعثم.

— تحقيق صحفي.. تحقيق صحفي يا الحاجة.

19 هداها الله. كنت أريد أن أرى أولادها وأطمئن عليها. الله غالب.

— آآآ أنت جورناليست[20]. يعطيك الصّحة.

وسكتتْ لكنها عادت إلى الكلام كأن أحدًا أجبرها على أن تكمل أسئلتها:

— ومع من هذا التحقيق؟

تدخّل القدر هذه المرة، فقد دخلت إسلامِ البيت، واتسعت حدقتاها حين رأتني كأنما رأت جِنًا لكن حدقتيها ضاقتا حين سلّمت عليّ وافترّت شفتاها عن ابتسامة حلوة. حين جلستْ، تكلمت أمُها بفرح طفولي.

— سي حسن جورناليست، وجاء للعاصمة على جال تحقيق صحفي.

وسكتتْ، فاسترحتُ لأنها نسيت سؤالها. ذاكرة العجائز مثقوبة خربة، لكنها لا تكون كذلك أحيانا:

— آآآ نسيت، ومع من هذا التحقيق؟

اعتدلت في جلستي لأعيد ثقتي بنفسي، وتنحنحت مرّة أو اثنتين، ونظرت في إسلام وقلت:

— مع ابنتك إسلام.

فكُّ الحاجة نعيمة سقط إلى الأسفل قليلا، وبؤبؤا

20 صحفي.

عيني إسلام تحرّكا يمنة ويسرة. وأناخ على المكان شيء من الصمت.

– وفيم التحقيق؟

– في الاعتناء بالأيتام وطرق التعامل معهم، وأشياء أخرى تتعلق بهم.

قالت الحاجة نعيمة وفرحةٌ مدفونةٌ استيقظت من عينيها: «آآآ خلاص لا فندق ولا والو. تسكن معانا ودِيرْ التحقيق نتاعك. وماتقولش لا. راك كي وليدي. وراني توحّشت ناس سوف، خليني نتفكرهم فيك شوي، ونحكيلك. عادلي بزّاف ماحكيتش عليهم».[21]

منحت نفسي شيئًا من الوقت في التفكير، لكي لا يُقال أني متسرّع في قبول العرض. لكن الحاجة قطعت تفكيري بأن قالت بأني لن أرفض طلبها لأنها بمثابة والدتي، فاكتفيت بابتسامة خجل وقلت:

– وما رأي إسلام في هذا؟

– موافقة.

قالتها وشيء من الخجل شابَ عينيها، ولا أدري هل تعني الموافقة على المقابلة أم على السّكن معهم أم عليهما معًا.

21 إذن لا فندق ولا غيره. تسكن معنا وتجري تحقيقك، ولا تقل لي لا لأنك مثل ولدي، وإني اشتقت لأهل سوف فدعني أتذكرهم فيك وأحكي لك عليهم، فمنذ وقت طويل لم أفعل .

الفصل الثالث

«أحب من تفيض نفسه حتى يسهى عن ذاته، إذ تحتله جميع الأشياء، فيضمحل فيها ويفنى بها»

نيتشه.

هكذا تكلّم زرادشت.

أحيانًا تعجز عن فهم أشياء تخصك، فيبعث الله أحدًا يُفهمك إيَّاها. كذلك كنتُ أنا عاجزا عن فهم أشياءٍ تخصني في الصَّميم إلى أن بُعثت لأفهمها من إنسان لم يسبق لي أن عرفته؛ وهو (إسلام المرادي).

نزلت عند طلب الحاجة نعيمة، ووضعت أغراضي في حجرة مخصصة للضيوف، وقد كنت عازمًا على إنهاء هذا التحقيق في يومين أو ثلاثة، لأتجنب حرج الضيافة، وأيضا لكي أعود إلى مغازيّ وأيّامي.

انتبهت إلى إطار معلق في الحائط به صورة شيخ كثيف الشارب، له نظرة تشي باليقظة والإحساس الدائم بالخطر، كعيني صياد عاش في البراري ردحًا من الزمن فتربّى على النبش في المهالك والخطوب، فهو أبدا على يقظة من السِّباع والهوام.

ولم أستفق من تأملي هذا إلاّ على صوت إسلام وقد وضعت «صينية» القهوة فوق الطاولة وهي تقول بصوت مازجه الوجع والفخر معا، «هذه صورة أبي رحمه الله، رحل إلى إلهه وأنا ابنة ستة عشر سنة، رحل وترك فيّ خواءً لا ينردم، ولم أشبع منه بَعْدُ. تعذبت لرحيله مرتين،

مرة لأني فقدته ومرّة لأنه مات فجأة، فلم يترك له القدر ترتيب شيء، ولم يترك لنا الفرصة كي نستعد لموته.

حين مات أبي أحسست ما يحسّ به مَنْ قُذِفَ في الصحراء عاريا من كلّ شيء، يعافر الشمس والمدى المفتوح.

يقال ما تيتم مَنْ مات أباه بل من فقد أمه، أمّا أنا فحين فقدتُ أبي، تيتمت من الحياة كلها.

أثّر فيّ موته كثيرًا فقد توقفت عن الدراسة لأشهر، لِولا إلحاح أمي ودموعها ودعاء خالتي (الحاجة كريمة) للبثتُ في ركن زاوية الغرفة أتأمل عينيْ أبي. هدّأني كلام خالتي كريمة فأعادني إلى رشدي، فقد قالت لي وأنا جالسة في زاوية الغرفة، أن الله إن اشتاق إلى عبده أخذه إليه، وقرّبه منه. ثم إنّ الذي حدث هو قدر الله، ولا اعِتراض عليه، فكلّ الذي أراده الله سيكون، وأحيانا يَلفّ الله الأقدار الحسنة في لحاف أقدار سيئة، والسّعيد من صبر واحتسبْ، والشقي من جَزِعَ وانقلبْ.

بهذه الكلمات طيّبتْ خاطري، وعدتُ إلى الحياة، ولكن عدت وفي داخلي أسئلة تتقدح وتتناسل كأن موت أبي فتح عليّ أسئلة الوجود.

«ما الله؟ وما القدر؟ وما الموت؟ وما الخير؟ وما الشر؟ وما السّعادة؟ وما الشقاوة؟ وما أسْرار الله التي

أخفاها عنّا، ولِمَ أخفاها؟ وما الحق وما الحقيقة؟ وما الغيب؟ وما الحكمة؟ وغير ذلك من المتاهات..»

أيقنت في النهاية أن «وراء كل شيء شيئًا» وأن السُّذج من الناس يقنعون بالأشياء وظواهرها. وهم كثرٌ أما أهل البصيرة فلا يقنعون إلا بما وراء الأشياء وهم قِلّة».

تنهدتْ وقالت: «موت أبي يا سي حسن كان سببا مباشرًا في اهتمامي بالأيتام لم أشأ لهم أن يكبروا على الفقْد كما كبُرت. ولا أن يتسع فيهم الخواء كما اتسع فيّ. سَجّل هذا في تحقيقك إن شئت».

انصرفتْ بهدوءٍ تاركة لي القهوة وفمي المفتوح.. أهذه التي ظننت قبل أيام أنها لا تجيد الكلام وأنها ثقيلة الروح؟!

إن وراء هذه المرأة عالم مُثقلٌ بالأسرار والحكمة والأعاجيب. في هذه اللحظة فقط أحسست أن لمكوثي في هذا البيت، وافتعال فكرة التحقيق الصّحفي، شيء من الجدوى فقد تعلمت من هذه المرأة في قليل من الكلمات أشياء لو ركضتُ وراء الكتب لما نلتها.

قررت أن أمكث لأكثر من ثلاثة أيام رغبة مني في معرفة ما وراء هذه المرأة المُكتّمة بالأسرار والحكايا. فقد يحلو لي أحيانا أن أخْبِر معادن الناس وسَرائِرهم.

ولكن لابدّ لي من أن أختلق سببا للمكوث معهم فمَاءُ وجهي لا يسمح لي بأكثر من ثلاثة أيّام.

بعد ساعة اصطحبتني معها إلى جمعية الأيتام، وحين كنّا في الطريق، نظرت في عينيّ نظرة ذات معنى وقالت: «سترى عالما آخر..» «سترى أشياء تسرُّك».

حين دخلنا الجمعية انهمر الأطفال عليها بين مُقبّل ومعانق وكلّهم يقولون: «ماما.. ماما جاتْ».

كنتُ على بُعدِ مترين أرْقبُ ما يحدث بعيني قناص، كانوا يتزاحمون للوصول إلى صدرها ومعانقتها، وشفاههم أيضا تزاحم على خِدّها، كل شفة تزحزح الأخرى، فكان خدّها مَحَلَّ قُبَلٍ، فلم يبق منه موضع إلا وقبِّل.

أدركت حينها أن محبة الناس لك رزق، يجب أن تُقدّره وتحافظ عليه كبقية أرزاقك أو أكثر.

التفتُّ إلى نفسي وتأملت فيها، فذُهِلْتُ، لأني تنبهتُ إلى شيء مخيف. «لا أحد يحبني» لا مسعود الضبع ولا عاهراتي ولا الناس.. ووقع في ذهني أنه ليس اللقيط من جهل أمه أو أباه أو هما معًا، بل اللقيط هو الذي عاش بين الناس ومثلهم ولكن لا أحدا منهم يُحبّه. لأول مرّة انتبه لكوني لقيط الحبّ والشعور!

اقتربت إسلام مني وقالت وهي تنظر إليهم: «إنهم يعطوني أكثر مما أعطيهم. أعطيتهم عمري وأعطوني قلوبهم. المحروم يا سي حسن من حُرِم الحبّ...

أترى الحياة على الأرض تكونُ إن تبخّر ماؤها أو غارَ؟! كذلك الإنسان لا يحيا أبدًا دون حبّ، وإن استطاع أن يعيش دونه فهو محض مسخ».

سكتتْ ثم أردفتْ القول: «إن شئت أن تُدوّن في تحقيقك شيئا عما قلت فاكتب: لم يكتمل فيّ معنى الإنسان إلا حين رعيت الأيتام وأعطيتهم عمري وقلبي فما عاد يحلو لي أن أعيش منعّمة وغيري يدفع عن نفسه الجحيم... وأدركتُ أن لكلّ شيء صدى، من جنس ذلك الشيء فحين رميت الأيتام بالرّعاية ارتدت عليّ حُبًّا».

قالت وقد قطّبت جبينها فاقترب حاجباها إلى بعض: «سأقول لك شيئا بيني وبينك لا شأن للتحقيق بذلك: أيكون الإنسان إنسانا إن عاش لنفسه ونَعّمَها، وبقربه إنسان يتعذب؟!»

نبتَ من أهدابها دمعتان، سرعان ما كبُرتا وسقطتا تاركتين خيطين رقيقين من الماء على وجنتيها البيضاوين، ورحت أنا أتهاوى في متاهات السؤال المدمّعِ.
ما أحرّ السؤال حين يُبكينا!

لا أدري لماذا تخيلت حينها أن سؤالها الذي انطلق، غارَ فيّ يبحث عن قرار، أو أي شيء يحطّ عليه فلم يجد؛ لأني كنت مجردًّ «خواء».

نعم كنت كالخواء خاليا من أي معنى، مُفرغًا من الأشياء التي كرّم الله بها الإنسان عن غيره، تمامًا مثل قارورة بلاستيك وقد أفرغت من مشروبها ورُكلت بالأرجل في زاوية مهجورة.

ما وسعني حين شعرت أني مجرد «خواء» أن أصفعَ نفسي صفعة أو صفعتين، ولا وسعني أن أكوِي يدي بسجائري كما كنت أفعل عندما أخسر شيئا، ولكن وسعتني دمعتان صافيتان مالحتان تكوّرتا في أهدابي لِتسقطا في فمي المفتوح للحياة، فأحسست أنهما أسْقطتا معهما أشياء تثْقِلني وتعُوقني أن أكون إنسانا حرًّا نقيًّا.

أخفيت عنها دمعتي، كالذي يُخفي عارًا، وساعدني على ذلك التفاتها لطفلة تبكي في زاوية الجمعية فذهبتْ إليها مسرعة، ولحقتها، وحين سألتْها عن سبب بكائها، ردّت عليها بكلمة واحدة «توحشتك».

ضمتها إسلام إلى صدرها وناست بها، إلى أن كفّت عنِ البكاء. فتذكرتُ أميّ عندما كنت أهرب إليها خوفا من الليل، فكانت تضمني إلى صدرها حتى أظن

أني في أأْمن مكان في الأرض، وتحكي لي خرافات من الزمن الغابر فأستسلم للنوم، فترسلني في فراشي دون أن أشعر بشيء.

قضت إسلام بعض الأشياء في مكتب الجمعية، وأوصت العاملات بعدّة أمور، ثم استأذنتْ في الانصراف المبكر لانشغالها باصطحاب ضيف صحفي.

في الطريق إلى منزلهم كنت أسترق إليها النظر، وكنت أعلم أنها أحسّت بذلك، لكني لم أملك نفسي، وقد كنت أقول في سرّي «إنها امرأة فيها رائحة الله».

*****

بعد العشاء عرضت علينا الحاجة نعيمة أن نسهر فوق سطح البيت، فصادف عرضها قبولا بل اشتهاءً. كعادتها تحدثت الحاجة نعيمة عن ذكرياتها في «وادي سوف» وعن أشياء أخرى من الذاكرة، وإنه يحلو للعجائز أن يتحدثن عن ماضيهن وإن كان سيئا ليشعِرْن أنفسهن بلذة شهود التاريخ الذي ركض هاربا.

أمّا (إسلام) فكانت تهتم بما تقول أمها تارة، وتارة أخرى تقلّب عينيها في النجوم، كمُنجّمة تستمطر طلسما.

حين سقط النعاس على عيني الحاجة نعيمة استأذنتْ بالذهاب إلى فراشها، وبقيتُ أنا وإسلام وبعض النجوم.

كانت بيني وبينها مسافة محشوة بالصّمت. عيناها تقلي النجوم نجمة نجمة، وعيناي تقلي عينيها المكتمتان بالأسرار والحكايا، وفي سرّي أتساءل «ما الذي بينكِ وبين ذلك المنام؟ أو ما الذي بينك وبينِ ربِّ المنام؟». قطعت تساؤلي بقولها: «أتعرف لماذا نسَر حين نرى النجوم؟» قلت لا قالت: «لأنها تذكرنا طفولتنا. ففي الصيف كنُا نرقد في السطح وأعيينا ترقب النجوم لنلهُم الحكايا والخرافات اللذيذة. لم نكن ندرِ أن النجوم هي كواكب بحجم الأرض أو أكبر. كنّا نراها مصابيح علقها الله في السماء لنستمتع بها قبل أن ننام. وكأنها تحرسنا من الأرواح الشريرة. كِنت أعجب من هذا النثار المضيء، وخاصة حين ينقطع الكهرباء. حاولت عدها مراتٍ كثيرة ولكن العجز كان أغلب. فتركت العدّ مكتفية بالاستمتاع بهذا المنظر الذي لا يزورنا إلا في الصّيف كفاكهة العنب والبطيخ.

كنت كل ليلة أختار نجمة، وأفرغ لها كل مشاغلي لأن صديقاتي في الصيف يذهبن إلى بيوت أجدادهن وأبقى وحيدة، ولا آنس إلا بنجوم الليل. من كثرة حديثي معهن حتى ظننت يومًا أنهن يسمعنني ويشاركنني مشاغلي وهمومي ولكن حين كبرت قليلا أدركت

أن الله هو الذي كان يسمعني فتركتُهن وتوجهت إليه.

كل ليلة كنت أحكي له عن كل شيء، كل الذي يفرحني وكل الذي يحزنني، وكل ما فهمته وكل ما حيرني، وما أحببت وما أبغضت.. كل شيء ما تركت شيئا إلا وأخبرته به، ولو كان عود ثقاب أو نملة، وكنت حين أنهي كلامي أنغمر في راحة كبيرة أحسّ كالذي يحس به من أسلم مفاتيح شيء ثمين كان يحرسه، والحقيقة أنه كان يحرسني ويحرس الشيء الثمين الذي كنت أحرسه. وشيئا فشيئا حتى أحببته..

كان يصبر على حماقاتي وأشيائي التافهة يستمع إليّ في صمت حتى أنهي كل شيء، ويؤنسني حين عدمت المؤنِس، حتى فرط في الحال يومًا فصحت: «راك روعة»، وضغطت على حرف الواو كثيرا، حتى فرت من جفني دمعتان صغيرتان أدركت حين كبرت أنهما دمعتان لابد منهما حين يسكننا حبّ كبير.

وشيئا فشيئا تحولت الدمعتان من شيء مفاجئ إلى إدمان لذيذ، فأحيانا لا أستطيع النوم من دونهما.

وكبُر ذلك الحبّ الذي وُلد من مناجاتي وقد كنت أسقيه وأحميه، فصار الآن يسقيني ويحميني. صرفني ذلك العشق عن كل لِذائذي القديمة، فما عدتُ أشتهي ما تشتهيه النساء ولا أأنس بما يأنسن، كان تماما مثل

النار لا يبقى شيئا قربها إلا أكلته، ولا تُبقي إلا نفسها.

وهل يستريح الذي في جوفه النار؟!

ظننت أن تلك النار ستخمد شيئا فشيئًا، وتلك عادةٌ وناموسٌ لابد منه. ولكن ظني كان خاطئا، فلازالت تلك النار تكبر في حتى غدوت كتلة ملتهبة يستحيل إطفاؤها.

ولازلت أحترق عشقًا ردحًا من الزمن، حتى حصل لي من الله أشياء قد لا تصدّقها؛ فأحيانا ينغلق علي فهم شيء فأناجي الله ليلا، وأستفتحه، وحين أستيقظ صباحا، أجد الذي كنتُ استغلقته قد فتح ونفثٌ في الفهم والعلم التام به. وقد جربت هذا مرارًا لكي أطرد احتمال الصدفة فتكرر معي، وكان الله كريما أكثر مما توقعت.

ومرةً سألتني عجوز متسولة شيئا، وحزّ في نفسي أني لا أملك شيئا حينها، فاكتفيت بابتسامة أطيّب بها خاطرها، وما إن أدبرت حتى تمنيت لو أن لي شيئا من المال أدفع به عوزها، فما أن مسّت كفي ظاهر جيبي حتى أحسست أن في جيبي ورقة فأخرجتها فإذا هي ورقة ألف دينار، فأعطيتها إيّاها وهي تتعجب وكنت على يقين تامٍ أني لم أحمل معي شيئا من المنزل ذلك اليوم.

وحدثت أشياء أخرى أتركها سرًّا بيني وبين ربّي.

الله يا سي حسن جميل جدًا وكريم جدًا.. العيب فينا؛ يهبنا غرائز صافية وفطرة نقية ونحن من يشوهها ويدنّسها، كأنه لا يحلو لنا إلا أن نعيش مشوهين».

أنهتْ كلامها بهذه الجملة الأخيرة، وانصرفت لتنام وتركتني أتقلب في حيرة كما يتقلب الذي سقط من شاهق. لم أدرِ قبل الآن أن في هذه الحياة من يقيم مع الله علاقة عشق، يأنس بالله ويناجيه، ويحس بوجوده إحساسا حيًا، يتدلل عليه ويحظى بما تدلّل وطلب!

الذي كنت أعرفه أن هناك إلهاً متعاليا في سماءه يرقب الناس من بعيد، وقد أعدّ لهم نارًا وجنّة وليس بينهم وبين النار والجنة إلا إشارة منه ليفقد الكون نظامه ويعود من جديد. وإذا به ليس متعاليا، بل هو موجود معنا، يصبر على أخطائنا، يتودّد إلينا، كي نعودِ إليه. كل الذي نحتاجه لكي نعرفه يقظة وجودية؛ أن نبقي أعيننا مفتوحة على الأشياء فما وراء تلك الأشياء إلا الله.

ضربت كفي بكفي وقلت في نفسي: «ضاع مني العمر وأنا أتعاطى الأشياء دون أن أنظر قليلا إلى الذي وراءها، فما وراء الأشياء، أعظم من الأشياء ذاتها».

حين قمت لأذهب للنوم، شعرت كأني كنتُ قبل

اليوم في وجودٍ ودخلت اليوم وجودًا آخر، يختلف عن سابقه كل الاختلاف، لأن الله في هذا الوجود الذي دخلته قريب، ويعيش معنا.

*****

كان الصّباح، وكانت الحاجة نعيمة مع ابنتها إسلام تحضر فطور الصّباح، وأحست الحاجة بشيء من الدّوار، لكنها لم تخبر ابنتها بذلك، وتجلّدتْ. لكن الدّوار غلبها حين كنّا على المائدة فذهبنا بها إلى المستشفى مستندة على كتفي وكتف إسلام قبل أن نأخذها في سيارة أجرة، وقد كانت تلتفت إليّ برهة وإلى إسلام برهة كأنها تقسم علينا نظراتها بالعدل.

أخبرنا الطبيب الذي كشف عليها، أن ضغط دمها مرتفع قليلا، وراح يوصينا بتوصيات روتينية. وقال لنا في الأخيرِ الأفضل لها أن تبقى هنا حتى نطمئن على صحتها جيداً. ما كان منّا إلا أن خضعنا لإرادته مكرهين. جلسنا بالقرب منها نؤنسها ونطيِّب خاطرها زاعمين أن لا شيء يدعو للقلق فحالتها عادية. والمسألة تتطلب بضع ساعات وتعود إلى منزلها. حكت لي الحاجة نعيمة عن مرضها متى بدأها وكيف عانت منه. وكيف يباغتها وأنهت حديثها بالرضا بقدر الله. «كل حاجة تجي من ربي راهي خير...»[22].

22 كلّ شيء يأتي من الله فهو خير.

يكبرن العجائز في نظري بعقيدتهن المسالمة التي لا يستطيع الدهر أن يزلزلها أو ينقص منها شيئا. واستسلمتْ للنوم بعد حديث طويل.

بقيت أنا وإسلام والحاجة نعيمة ممدّدة بيننا، كنت أسرق النظر إلى عينيها ولكنها كانت مُطرِقة كأنما تفكر في شيء عميق.

أردت أن أكسر الصّمت الذي أناخ علينا فجأة، وأيضًا أن أتعرف أكثر على هذه المرأة التي حلمت باسمها وأنا في كبد الصحراء، فسألتها:

«كم أخاف المرض! ألا تخافينه؟!»

نظرت في عيني أمها، ثم نظرت فيّ وقالت:

«المرض قدرُ الله، وأنا لا أخاف أقدار الله لأني أحبه، والذي يحب لا يقدّر إلا الخير لمحبوبه وإذ كان ذلك الخير في لبوس شرّ. المرض رسالة من الله إليك فافهمها، أحيانا يريد أن يبتليك ويختبر عودك ومعدنك، فإن صبرت قرّبك إليه. وأحيانا يشتاق إليك ويريد أن يسمع دعاءك ومناجاتك فيُمْرِضك لتفعل وأحيانا يحبّ أن يذكرك نعمته عليك، فيسلبها منك زمنا، ليذكرك أن العافية منه لا منك، وبذلك يكسر سلطان العادة عليك.

وغير ذلك من أسرار المرض كثير.. وأنا عن نفسي

لأَنْ أمرض وهو راضٍ عني، أحبّ إليّ من أن أصحّ وهو عليّ ساخط».

سكتتْ برهة، ثم قالت: «وأنت لِمَ تخاف المرض؟»

فقلت لها: «لشيئين، أمّا الأول فلأنه يُنهك، ويسلب من الرجل لذة الحياة بالحَوْل بينه وبين رغائبه وما يشتهي. وأمّا الثاني فلأنه قرين الموت، فأحيانا كثيرة يعقب المرضَ الموتُ، وأنا أبغض الموت وذكره».

حسبتني أجبتُ عن سؤالها بدهاء ولكنها قالت: «وما الموت يا سي حسن؟»

بلعتُ ريقي وأمهلت نفسي برهة من الوقت، لأني لم أسْأل ولم أسأل نفسي يوما مثل هذا السؤال: «هو أن تنتهي حياة الإنسان فلا يستطيع حِراكا. فيُقبَّر متروكا للأرض كي تفنيه».

عدّلت من جلستها، وأشرق وجهها كالذي فرح بشيء، وقالت: «الموت يا سي حسن هو فراق الرّوح للجسد الذي طالما سجنها، وأرغمها على أن تعيش عالمه. بالموت تتعالى الرّوح إلى عالمها وتستكِن، تاركة الجسد لأمه الأرض، تعيده إليه كما انسلخ منها ذات وجود.

الموت إذا تأملته في أصله حقيقة وجودية تشهد أن

الإنسان مخلوق ضعيف؛ لأن نهايته التراب وأن وراءه إلهًا يُفني الأجساد دون أن تفنيه.

لعلك لا تصدقني إن قلت لك إن الموت هو الذي جعل الحياة لذيذة وعزيزة؛ تخيل أن لا موت في هذه الحياة. إذن لا رهان فيها، إذن لا حلاوة لها. إنّ الرهان هو الذي يعطي الحياة لذتها. فكلّ اللذائذ والمشتهيات نشتهيها لعلمنا بأنها ستزول أو كأن أحدًا سيسلبها منا. وفي الوقت الذي نتأكد أنها أبدية نملّها. ونملّ أنفسنا معها. وهذا سرٌّ من أسرار الموت».

سكتت قليلا وأطرقت، ثم دمعت عيناها دمعتان حزينتان بطيئتان في تزحلقهما على خديها. وقالت: «ما دام الموت لا يبعدني عن الله، فلِمَ الخوف؟ أخاف فقط من شيء يبعدني عن ربّي..»، وغرقتْ في دمع كثير، حتى تمنيت لو شاركتُ الله في حبها له.

لا أدري لماذا تخيلتها للحظة أنها تبكي على كتفي، وتبلّله بدموعها المالحة الصافية.. انفضّ ذلك الجو الملائكي بخروجي من قاعة العلاج لأشم بعض الهواء النقي.

*****

حين أسندتُ الحاجة نعيمة على ظهرها فوق سريرها في البيت، ودعت لي بكل ما تحفظ من دعاء وقضيت لها حاجة أو حاجتين وانصرفت إلى غرفتي، فكّرت في العودة إلى وادي سوف، لأعيد ترتيب حياتي من جديد، فقد انقلعت من صدري أشياءٌ ما كنت أظنها تقْلع، وانغرست أشياء ما حسبت يومًا أنها ستُغْرَسُ.

سبعة أيام تكفي للمضيف وتزيد. فكرت في دعوتهم لزيارتي في «واديِ سوف» لأردّ عليهم بعض كرمهم معي، وفكّرت أيضا كيف أنهي هذا السِّيناريو الذي بدأته، أأطلعها على الحقيقة أم أكمل اللعب بشخصية الصحفي المنتحل وأسألها بعض الأسئلة الروتينية كالتي نقرؤها في الجرائد؟ وأنهي التحقيق. ترددتُ حتى أخذ مني التردد ساعة أو ساعتين وأثناء ترددي سمعت صوتا خفيضا يقدم إليّ من داخل البيت، ظننته للوهلة الأولى صوت الحاجة نعيمة الواهن وهي تشتكي بقية مرضها لليل، ولكن بعد أن تتبّعت الصوت كما يتتبع القطُّ رائحة الشواء، عرفت أن الصّوت لإسلام وليس لأمها. اقتربت من مصدر الصوت أكثر فاتضح أكثر، وإذا هو قرآن ودعاءٌ.

كان صوتها دافئا هادئا به بحّةٌ خفيفة كأنها قادمة من الأعماق، أصغيت لها، وكنت لأول مرة أصغي لأحد يقرأ القرآن، فقد كنت قبْلا لا أطيق سماع أي أحدٍ دون

موسيقى وإيقاع ولكن هذه المرة كان الصوت الذي أسمعه فوق الموسيقى والإيقاع فلربما أفسداه.

كان ذلك الكلام يعرجُ بي إلى السماء، وكلما سمعت أكثر ازددت عروجا والتذاذا، وشعرتُ أن نشوة تسري في جسدي فهي تجدده وتحييه. حين سكتتْ انتهى بي ذلك المعراج، وقفلت راجعا إلى غرفتي كيْ لا تفطن بي، ولكن كأسا كان موضوعا على الأرض أبَى إلا أن يفضح أمري، فقد ركلته بقدمي دون قصد فتشظى إلى قطع. في ذلك الظلام، فاضطررت إلى إضاءة المكان كيْ لا أدوس على الزجاج وعندما كنت أجمع القطع المتناثرة، سمعت صوتها: «مساء الخير»

أحسستُ أني كالهارب الذي قدّ قميصه من الخلف.

«مساء الخير إسلام»

«ماذا حدث؟!»

أحرجني السؤال فهمَمْت أن أخفي عنها سبب وجودي في هذا المكان لكنّي صدقتها القول:

«كنت أستمع إليك، ثم ركلت الكأس خطأً».

ابتسمت متعجبة، وقالت:

«وهل في قراءتي شيء شدّك إليها. هي قراءة عادية».

أردت أن أقول لها: «لا، قراءتك ليست عادية، كنتِ تقرئين القرآن، وصوتك كأنه يربط الأرض بالسماء، كنتِ كالذي يقرأ أحرفا وكلمات هي أحبّ إليه من نفسه ووالديه والدنيا بأسرها، تقرئينها وكأن وراء كلّ كلمة سرّ تستنطقينه وتحُلين عقدته فيطير متحررًا».

ولكني قلت لها: «لا، هي ليست عادية».

قالت: «وما الذي هو غير عاديٍّ فيها؟»

«لا أدري، مجرد شعور..».

«كلّ ما في الأمر، هو أني أحب أن أقرأ القرآن وأنا أشعر أنه كلام مَنْ أحِبُّ. وأنه قادمٌ من عوالم أزلية ليستقر على شفتيّ، وحين أقرؤه يحضر في بالي أن الله مُصغ إليّ، وأنّ وراء كل كلمة أقرؤها سرًّا، فأستنطقه وأحلّ عقدته، فيطير متحررًا، فيبهجني ذلك النور الذي انقذف داخلي. وعقدة فعقدة حتى أشعر أني مُلِئت نثارًا من النور، وكلما قرأت أكثر تعاليت أكثر، وأصبحت أخف وزنا وشفّافة أكثر، كأني روح بلا جسد، تطير في الفضاء كما يحلو لها.

مرات كثيرة أنقذ نفسي من الوحشة والهمّ والخوف

بالقرآن فحين أقرؤه، وأمعن القراءة فكأنّ لا وحشةً ولا همًّا ولا خوفا. القرآن يا سي حسن وجودٌ من نور، من دخله أمِنَ، وسَعِد، وعَرِف. ولا أخفي عليك سرًّا أني عرفت ربي بالقرآن أكثر مما عرفته من الحكايا والناس، ولازلت أتعرف عليه، وكلما قطعت شوطا في هذا الطريق امتدت بي أكثر واستطالت، وكأنها طريق لا نهاية لها.

وشيءٌ آخر لا أخفيه عنك، هو أني كلما قرأت القرآن انفتحتْ لي بعض مغاليقه، فأنتشي بها، وأجدني مرة أخرى أفتح تلك المغاليق فتنفتح لي على معانٍ أخرى. وكأن وراء الكلمة الواحدة معانٍ مكتّمة، لا تنقاد إلاّ لمنِ أذن له الله بذلك. فالقرآن يا سي حسن لا يعطيك شيئا منه إلاّ إذا أعطيته كلَّك».

انصرفتْ إلى غرفتها وانصرفتُ إلى غرفتي وأنا مصروف عن كلّ شيء إلا عن الذي قالته توًّا. لم أكن أدري قبل اليوم أن القرآن بهذه العظمة وبهذه الحلاوة والنور، كنت أحسبه بضع سور أنزلها الله على نبيّه لهداية البشر وكفى. أمّا أن يكون شيئا نعيشه ونستلذه ونأنس به، ونحاوره ونسأله فيعطينا، فهذا أمر لم يخطر لي على بال.

الفصل الرابع

«أحببتكِ مرغما

ليس لأنك الأجمل

بل لأنك الأعمق»

. محمود درويش .

عند الصباح حزمت حقيبتي وركنتها في الغرفة، وجلست أحتسي قهوة الصباح معهما، أحسست بشيء من الألفة والقرب حين تفرست وجهيهما على غفلة منهما، فما استوحشت من جِدّة وجهيهما اللذين ما رأيتهما إلا قبل بضعة أيام، بل على العكس أحسست أني أعرف هذين الوجهين من زمن بعيد، زمن كانت الأشياء فيه متصالحة، أو كما يقول جدّي: قبل أن يبدأ خرافته «زمنَ كان الحيوان ينطق».

انتبهت لنفسي عندما قالت لي الحاجة نعيمة: «اشرب قهوتك يا وليدي..». شربت رشفة أو رشفتين، وتنحنحت لكي أهيء نفسي للكلام، فترددت ولم أستطع. ثم ضغطت على نفسي وقلت:

«الحاجة نعيمة..»

قالت لي في هدوء جنائزي:

«عارفاتك وش حاب تقول حلمت بيك».[23]

وأخرجت منديلها المُورّد ومسحت مقلتين امتلأتا

23 أعرف الذي ستقوله. حلمت بك.

بالدموع. وقالت:

«إن قلت لك مرة ثانية امكث معنا كنتُ أنانية لأني أخذت حق أهلك عليك. لا أخفي عليك أني لأول مرة أحسّ أن لي ولدًا وهبتْه لي الصّدف والأقدار، ولكن لابُدّ للصدف والأقدار أن تسترد ما وهبت.

بقدر ما أنا حزينة على فراقك، بقدر ما أنا سعيدة لأني عرفتك، وارتويت بك. ما الحياة إن لم تكن طورًا سعادة وطورًا حزنا؟؟

سافر يا بني.. سافر واعلم أن رحيلك سيخلف فيّ فراغا موحشا. لا أدري أتستطيع الليالي أن تطويه أم لا تستطيع؟».

كنت أستمع إليها متجلدًا، أخشى أن يخرج البكاء الذي انفجر داخلي. قمتُ وقبّلت رأسها، وضممتها إلى صدري طويلا، واكتفيت بالقول: «لابُدّ أن أزوركم يومًا ما» قلت ذلك وأنا أنظر في عيني إسلام وهي مطرقة، ولم يخف عليّ النور الذي أشرق من وجهها حين سمعت جملتي.

*****

ذهبتُ مع إسلام إلى جمعيتها كي أنهي متطلبات

التحقيق الصحفي المفتعل، أعطتني بعض الأوراق الخاصة بالجمعية ونشاطاتها ونسخا عن التكريمات والتشريفات التي نالتها الجمعية وغير ذلك من الوثائق.

سألتها بعض الأسئلة الرتيبة السريعة التي تخص نشاطات الجمعية، فأجابتني باقتضاب، كالمُكْره. ولفت انتباهي أني حين أسألها السؤال تمهل نفسها وقتا ثم تجيب مع أن السؤال لا يحتاج إلى كثير تفكير، فتبيّن لي بعد ذلك أنها لا تأخذ كل ذلك الوقت للتفكير في السؤال، إنّما كانت تكابدُ شيئا!

حاولتُ أن أعرف الشيء الذي تكابده، فأجهدت فراستي وكلّ حواسي، ولكنها كلّتْ دون أن تعرف ما الذي كانت إسلام تكابده.

بؤبؤا عينيها يتحركان يمنة ويسرة وهي مُطرقة ثم ترفعهما إلى السَّقف. فيسود عينيها البياض، وينطلق من فمها زفير خفيف لكنه طويل، كطول الحيرة التي غشيتني من هذه الحركات التي ما اعتدت عليها من إسلام.

أكملت حواري معها وفضولي كصياد سمكٍ يقظ لكن لا سمكة في سنارته. أثناء ذلك وقفتْ وهمّتْ بالخروج وقالت مسرعة «اعذرني.. سأعود» غابت بضع دقائق، وحدث شيء. أثناء غيابها لم أدره ذلك الوقت،

ثم عادت تعتذر، «ما أشدّ الزكام.. أطلت عليك؟!»

قبِلت عذرها لأن عينيها محمرتان تشيان أن زكامًا حادًّا سكنها. أكملت حواري على مضض ولا زالت تلك السنارة تبحث في الماء عن صيدها، ولا صيْدًا. أبَدْتُ فضولي، وخرجت من مكتبها إلى باحة الجمعية، رأيت أطفالا كثر، اقتربت مني طفلة صغيرة لا تكادُ تبين، اقتربت حتى التصقت بساقيَّ ولفّت ذراعيها الصغيرتين عليّ، وقالت في هدوء: «بابا...».

أحسست أن قلبي تقاطر ثم ساح.. إسلام كانت تنظرُ في عينيّ الحائرتين ثم قالت:

«قلوب الأطفال لا تميل إلا لمن فيه شيء من رائحة الله...».

أحسست أني علوت على الأرض ببضع أمتار، وفاحت مني رائحة مقدسة.

نزلت إلى الطفلة وضممتها إلى صدري طويلا، كأني أوقظ في صدري غريزة الأبوّة، أو كأني أمنحها الذي حُرمت منه، فقد كنت موقنا أن الصُّدور الصادقة إذا تلاقت والتصقت حدث بينهما شيء عجيب.

أعلمت إسلام أني أنوي أن أتكفل بها، ففرحتْ لذلك وشكرتني، وشجعت في مروءتي وصِدق توجهي، وقالت

لي كلمة لن أنساها وإن عشت أعصرًا ودهورًا:

«إن الله ليستحي ألاّ يكفل عبداً، وقد كفل ذلك العبد أحد عباده. اذهبْ فأنت في كنف الله وحفظه».

طار قلبي كما الطير، وحلّق عاليا كي يرى الحياة من أعلى، فأحيانا يحلو للطيور أن تجرب قدرتها على التحليق فوق الحياة، وكنت أنا ذلك الطير.

حين كنّا عائدين من الجمعية، عاجت إسلام على كشك واشترت بطاقة هاتفية لتضيف إلى رصيدها رصيداً. وحين كانت تنقل الأرقام من البطاقة إلى الهاتف وهي قادمة نحوي وإذا بسيارتين قادمتين في سرعة قاتلة كأنهما في سباق ولِحَاقٍ، فانتبهتْ لذلك وانحازتْ نحو الرصيف، وصفرت الفرامل في أذنيّ صفيرًا حادًا، وانتهى ذلك بصوت ارتطام، وإذا بإسلام منتشرة على الأرض!

دار بيَّ الأسفلت والناس والعمارات وأشجارها، وصرخت كأني أصْدِعُ بصراخي حائطا: «إسلام»...وركضت نحوها متعثرا كالراكض خلف روح يستردها لجسدٍ هامدٍ. أخذت رأسها بين يديّ أتفقده كأني سأعيد له الحياة. ثم أخذت جسدها المُدمّى وجريت به لأول سيارة أمامي، وأمرت سائقها أن يذهب إلى المستشفى بأسرع ما يمكن، ثم أرسلتها في المقعد الخلفي ووضعت

رأسها على ركبتيّ، وأخذت أتفقد العروق التي في رقبتها وإذا بها تخفق خفقانا خفيفا. فحمدت الله على حياتها. وسرعان ما سقط على رأسي سؤال مخيف: ولكن أيكفي هذا الخفقان أن يضمن لها الحياة؟

أصعب المواقف في الحياة، أن يتدلى أمامك إنسان بين الحياة والموت، ولا تملك أن تفعل له شيئا، سوى أن تفتح عينيك عن آخرهما وتنتظر ما سيحدث.

كنتُ ذلك المنتظِر، الذي يتفرس وجه امرأة فتحت عينيه على أسرار كانت قريبة منه، ولكنه كان غافلا ومغلقا كلّ منافذه، إلا منافذ اللّهو والرّماد.

لم أستطع الكذب عن نفسي، أو أن أنافقها فقد كانت «إسلام» جمِيلة جدًا حتى وهي بين الدّم والغيبوبة، أو هكذا تخيلتها. فقد يحدث أن يَجْمُل في أعيننا الواحد وهو في أقصى حالات ضعفه.

أدخلوها غرفة العمليات، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. فالأطباء يعرفون جيدًا أن الرّوح أحيانا تنسحِب من صاحبها وتتركه، إن لم يُعجّل في تطبيبه. تركتُ للمقاعد الباردة. كم أكره مقاعد المستشفيات لا حميمية فيها، كأنها تقلِقُ على مضض. لم أطق الجلوس كثيرا، ولا الوقوف كثيرًا ولا الانتظار كثيرًا. كنت كنوّاس ساعة حائط. وهل يهدأ النوّاس؟

فكرت في كل شيء سيحدث لها. ولأمها المسكينة فكرت في الأيتام الذين يتعلقون بها كما يتعلق البرتقال بشجرته. نثرت على مخيلتي كل الكلمات التي قالتها لي، ورُحت أمحصُها واحدة واحدة. كان كلامها يشبه كلام الأنبياء. أو يشبه كلام بعض الذين خصّهم الله ببعض أسراره.

دوّت في رأسي جملة قالتها لي في المستشفى:

«ما دام الموت لا يبعدني عن الله فلِمَ الخوف؟ أخاف فقط من شيء يبعدني عن ربّي..»

وأناخ عليّ سؤال: أكانت تتنبأ بنهايتها فقالت الذي قالت؟! أم أن المسألة محض صدفة؟! وكيف يعيش مع الصّدف امرأة تناجي ربها كل ليلة، وتتدلل عليه؟!

حين كنت أنوس وأفكر وأعرض كلامها على مخيلتي إذ برجل يقول لابنه: «أوصلني إلى المصلّى، فهو في آخر الرّواق». انقدح في ذهني فكرة فتبعتهما. توضأت، وأخذت أصلي ركعتين لله كي ينجي إسلام من الموت، أثناء سجودي تهيّبت كثيرًا، لأنه لأول مرّة أسجد لله وهو حاضر في قلبي، شعرت أنه قريبٌ مني جدًا. كأنه مصْغٍ إليّ ينتظر فقط الذي سأطلبه منه. تجالدت كي أقولَ كلمة أو كلمتين، لكني لم أستطع فانفجرت باكيًا مشهقا كطفل ماتت أمّه أمام عينيه.

وكلما بكيت أكثر تخففّت من عبء قديم يُثقلني أكثر. وحين رفعت رأسي من السّجاد ارتسمت فيه دائرتين من ماء وشعرتُ أني طرحت مع تلك الدائرتين فجوري ورمادي. ورفعت يديّ ودعوت الله أن ينقذ (إسلام) من الموت ومن أن تتشوه أو تعاق.

عدت إلى الرّواق أمشي بخطى بطيئة حتى وصلت غرفة العمليات، جلست على المقاعد التي تقلني على مضض، كنتُ كالذي بعث برسالة وينتظر ردًا، عيناي في السّقف، ويداي مكتوفتان ورجلاي مرسلتان، وأشياء كثيرة في رأسي تدور وتنصرف دون أن تستقر.

خرج الطبيب من الغرفة، فوقفت أسأله عن حالها فقال والحيرة تغشاه: «لا أدري كيف بقيت حية. كأن جسدها لا يؤمن بالموت، أو كأنه خارج حساباته».

ثم قال: «أأنت سي حسن؟»

قلت: «نعم»

قال: «كل الوقت كانت تهذي باسمك وتقول: يا سي حسن، كل شيء في حينه».

*****

إسلام ممددة على سرير المستشفى، وأنا أجلس قربها وقد وضعتُ باقة الورد قربها، جفناها أبيضان مشربان بحمرة خفيفة، منسدلان عن عينين طالما سرحت فيهما، متنعماً في مراكح النور. هذه سيرتي منذ أسبوع تقريبا، كل يوم آتي إلى سريرها في السّاعة الثامنة حاملا باقة ورد آملا في أن تفتح عينيها، فترى الورد الذي تحبه فتفرح، لكن الأمل لم يتحقق بعد، فكأني كنتُ أخاتله بهذه الباقة لكنه يرفض المجيء.

أرقبها لساعة أو ساعتين. أمدّد مخيلتي وأُطيلها حتى تستوعب المعقول وغير المعقول، وفي الأخير أفرقع كل شيء، وأقوم لذلك المصلّى فأصلي ما وسعني جهدي، وأدعو الله أن يعيد لإسلام الحياة، فهي كالمعلقة بين الحياة والموت. ثم أنصرف موقنا أن الله الكريم الجميل – كما تصفه إسلام – لن يردّني صِفرا.

هذه المرةِ رأيتِ جفنيها المشربين بحمرة خفيفة ينسحبان شيئا فشيئا إلى الوراء، لتظهر مقلتاها المشبعتان بالنور، مالت برأسها نحو اليسار قليلا فوجدتني أنظر فيها فأشرق وجهها وقالت: «سي حسن!».

نظرت فيها طويلاً، وعمّقت النظر في عينيها، كالعطِش الذي فقد الماء لأيام ثم وجده.

أحببت الله أكثر لأنه استجاب لطلبي الملحاح، ورحت

أبتسم له ولها...

«أطلتِ علينا الغيبة».

«أخذني الله لنفسه ثم أعادني».

لم أفهم ما قصدت ولم تشرح لي، فاكتفيت بالتبسّم. سكتتْ وسكتُّ، وامتلأت المسافة التي بيننا بالصّمت والنظرات المسروقة..

كسرتْ ذلك الصّمت بقولها:

«هل خفتَ عليّ من الموت؟!»

«نعم».

«كلُّ دعائك كان يصلني كلمة كلمة، وكان يقع على قلبي وأستلذّه، ولا أحبّ أن يكتمل.. شكرا لك على كل شيء».

أحسست أني داخل زمن عجائبي، كيف عرفتْ هذه بدعائي لها، وقد كانت معلقة بين الحياة والموت!

«العفو».

ولما رأت جبيني قد تقطّب، وعينيّ تاهتا في مدارات السؤال. قالت:

«يا سي حسن، إن الذيّ حلّ عقدة لسانك، فانفرط منهُ الدعاء، هو الذي حلّ عقدة سمعي، فأسمعني مالا يُسمع».

بقيتُ مسمّرًا في مكاني أستوعب ما قالت، وأكرر قولها في سرّي.

«قلتُ لك فيما مضى أن الله – أحيانا – يصيب عبده بقدر ظاهره شر وباطنه خير. وقد فعل معي، فقد أطلعني هذه المرّة على أسرار مكتّمة كان بيني وبينها ألف حجاب، كما أطلعني على شيء من أسرارك».

شعرتُ كأن شيئًا دوّى في معدتي وأخذ ينتشر في سائر جسدي.

استحييت أن أسألها عن الأسرار التي أطلعها الله عليها، ولكن نفسي كانت تلحّ عليّ أن أسألها، فقالت وكأنها قد شعرت بما يدور بداخلي:

«أسرار الله تُطوى ولا تروى».

*****

بعد ثلاثة أيام من يقظتها، رخّص لنا الطبيبُ أخذها من المستشفى والذهاب بها إلى بيتها، بعد أن أوصانا بعدّة أشياء تخصّ دواءها وصحتها.

نقلناها إلى البيت، واهتمت الحاجة نعيمة بدوائها جيداً، وأخذت صحّتها تعود إليها شيئا فشيئا، حتى اكتملت وأخذ ذلك منِ الحياة خمسة عشر يوما، وكنت في هذه الأيام مواضبا على الدّعاء لأني استحليته، وأراح روحي السّائمة، وكنت كلما دعوت أكثر، اِستكنتُ أكثر. وهدأت زوابع الرّماد.

بعد أن مارست الدّعاء لأيام متواصلة أدركت أنه تجربة وجودية عميقة؛ فالعبدُ لاَ يعرف حقِيقة مقامه إلاّ إذا دعا، فأثناء الدعاء أحِسُني صغيرا جدا كحبة رمل، وأن الله كبيرٌ يملأ عليّ كل شيء، وقد كنت حين أدعو أطلق نفسي من كلّ قيد، كريشة انطلقت في مهب الرِّيح فهي لا تملك أن تتوقف في مكان تقصده.

أغرتني حَلاوة الدّعاء حتى أدمنته، وقد كنتِ أظن أن كل حلاوة لا محالة زائلة، وأنّ بعد الشّرّةِ فتورا، ولكنِ الذي أذهلني أنّ الصّواب عكس ما توقعت؛ فإني كُلّما أكثرت من الدعاء وتوغلت فيه زادت شراهتي له، وعطشتْ الرّوح أكثر، وغرْتُ أنا في عمقها أكثر، حتى كأني بلغت تخومها وأقاصيها.

كنِتُ أقطع الدّعاء حين تطلب منّي الحاجة نعيمة شيئا، فأقضيه لها، ثم أطمئن على إسلام، وأنصرف.

بعد أن اكتملت صحّة «إسلام» قررت أن أعود إلى

«وادي سوف» وفي فمي كلام كثير يخصّ إسلام لم أقله لها بعد ولا أظنني سأقوله لها. وحين أخبرت إسلام بعزمي على العودة أخذتْ تسألني:

– لِمَ أنت ذاهب؟

– لأن الذي جئت من أجله انتهى.

– ومتى ستذهب؟

– غداً إن شاء الله.

– متى؟

– في السّاعة السّابعة صباحاً؟

– في الحافلة أم في السيّارة؟

– أحبُّ الحافلات.

– لِمَ؟

– لا أدري ربما لأني أجد فيها الفسحة للمطالعة أكثر.

– وهل تطالع؟

– نعم، حين أكون مسافراً فقط.

– وماذا تطالع.

– الأخبار والرِّوايات.

– وأي الرِّوايات يعجبك؟

– الواقعية.

– لِمَ؟

– أحياناً تفيدني في فهم الحياة أكثر.

وسألتني أسئلة كثيرة وأجبتها عنها، ولم تكن عادتها الإكثار من الأسئلة، ولم يخف عني أنها أرادت أن تستبقيني كي لا أرحل، لكن حياءها منعها من ذلك فاستكثرت من السّؤالِ كي تملأ الفراغ الذي بداخلها، ولن يملأ السّؤال الفراغ.

ولم يخف عني كذلك حين سألتني عن «وادي سوف «وطلبت مني أن أحدثها عنها قليلا وأبدت شوقها إلى زيارتها، أنها تريد أن تقول شيئا لكنها استبقته وراء السؤال.

وحين أردت أن أقوم لجمع أغراضي حتى أجدها جاهزة يوم غد قالت وأنا بين الجالس والواقف:

«أقول لك شيئاً أخيراً قبل أن تذهب، أولاً، أرجو أن إقامتك بيننا كانت طيبة، ولم نزعجك في شيء، ولم نقصّر في حقك. وثانيا: راسلنا حين تكون في وادي سوف وطمئنّا على حالك.

وثالثاً: تذكر دائماً أن الله معك، بل في قلبك، وأنه أقرب الأشياء إليك، فإذا أردت شيئا فمنه، وإن ضاقت بك الحياة فاشتكِ إليه واكتب إلي، وأحِبه كثيرا فإنك إن فعلت، أنِستَ وسَكنت».

في الصّباح حملت حقيبتي على ظهري، وقبلت رأس الحاجة نعيمة، وعيناها الصغيرتان تسيلان خطّين من الدمع، ووقع في خاطري شيء، ما أروع أن ترى إنسانا يدمع لأجل فراقك.

أمّا إسلام فقد تجلّدتْ، وحين كنت أقبّل رأس أمها كانت عيناها مليئتان بالدّمع لكنه لم يَسِل، فقد بقي حبيس جفنيها، أو كأنه كان يسيل في داخلها.

حين خطوت تاركاً إياهما وراء ظهري كانت خطواتي ثقيلةً كأنما رُبطَ في قدميّ ثِقل، كنتُ أبتعد عنهما تاركا ورائي زمنا جميلا ساقته لي الأقدار والألطاف. فأجمل الأزمان ما سرقناه من الحياة وهي في غفلة عنّا، ترقبُ الآخرين.

*****

ركبت الحافلة، وفتحت الجريدة لأقرأ أي شيء، المهمّ أن أقرأ شيئا أردم به الفراغ الذي يتسع داخلي، وحاولت أن أقرأ لكن إسلام بعينيها الصّافيتين وبكلامها الهادئ تحضر في صفحة الجريدة، وحين أطوي الجريدة، وأنظر من النافذة في الأشجار والطريق أسمعها تهمس داخلي بأشياء أفهمها وبأخرى لا أفهمها.

كان ذلك حالي إلى أن وصلت «وادي سوف» برمالها الذهبية، وشمسها الهادئة التي لا تعكرها الغيوم، يحدث لي دائما إنْ سافرت وعُدْت، وعند مداخل بلادي يضطرب فيّ شوق قديم، هو شوق الأمكنة. ما أحلى بلادك حين تغيب عنها.

الفصل الخامس

لو كنت أعلم أن الحلم يجمعنا .. لأغمضت طول الدهر أجفاني

- بيت عربي -

بعد مضيٍّ بضعة أيّام مع الأهل لاحظوا أني تغيَّرت وكأنِي لستُ (حسن الباير) الذي يعرفونه، فقد صرت هادئا أكثر من ذي قبل، وأكثر ابتسامة، وأكثر مجالسة لهم وأكثر ودًّا.

ذات مرّة كنتِ أتوضأ وحين أنهيتُ وذكرتُ الله، وإذا بأهلي صغارا وكبارا يفتحون أعينهم عن آخرها ويتهامسون، وحين أطلت النظر فيهم انفجروا ضحكا؛ كان غريبا أن يروني أتوضأ لأصلي كغرابة أن تطلع الشمس من مغربها، ولهم كلّ الحق لأنهم ما اعتادوا مني ذلك وأنا ابن الأربعين.

شيئًا فشيئًا اعتادوا مني الصّلاة والدّعاء وقراءة القرآن، والذهاب إلى المسجد، ولم يسألوني عن سبب تغيري كي لا يثيرون حفيظتي فأرتدّ من جديد، وما كنت لأفعل، ولكن تركتهم لخوفهم.

في الحقيقة كنتُ كالذي وُلِدَ من جديد، وأخذ يجرب الحياة ويكتشف ما فيها. تغيّر عليّ كل شيء، حتى المذاق تغيّر. هجرت الخمرة والمخدّرات وشرب السّجائر، وكان صعبا عليّ لكن الإلحاح في الدّعاء

وكثرة الصّلاة ساعداني على ذلك فقد عوّضا اللّذة التي كنت أجدها في الخمرة والمخدّرات. فذلك التعالي والسّمو في الصّلاة أشبعا فيّ الغريزة التي لم تشبعها الخمرة والمخدّرات. فقد كنت في ما مضى أملؤها بهما ولكنها لا تمْلأ أبداً.

مرّ عليّ شهر وأنا أجرّب وجودا جديداً، وأتقلّب في مداراته، فانتبهت إلى أشياء كانت قريبة مني وكنت غافلا عنها من ذي قبل، وهجرت أشياء كانت لصيقة بي مختلطة بالعظم والدّم، وما كان أصعب هجرها، أمّا الرّوح فهدأت واطمأنّتْ بعد أن كانت هائجة تائهة تطلب حاجتها بشرهٍ.

طلبت رزقي في الأسواق فوجدته. فقد اشتغلتُ في مكتبة كبيرة، وحدّد لي صاحب المكتبة راتبا لا بأس به، يغني عن الجوع ويستر الحاجات اليومية، وكنت أتحين أوقات الفراغ، وأعمُرها بالمطالعة، حتى تكوّن لديّ حصيلة ثقافية.

وشيئاً فشيئاً حتى تاقت نفسي للكتابة، فأخذت أكتب المقالات وأرسلها إلى الجرائد والمجلات، فاستحسن بعض رؤساء التحرير مقالاتي، فدعوني إلى الكتابة الدّائمة في جرائدهم، فقبلت وتعاقدوا معي على أجرٍ معين. فخصصتُ ذلك الأجر لتلك البنت اليتيمة

التي وعدتُ إسلام أن أكفلها.

وَحَدَثَ أن رآني (مسعود الضبعِ) عائداً ذات يوم من عملي إلى البيت، فسلّم عليّ سلاما حارّا يشي أن عِشرة قديمة بيننا، وسأل عن حالي فأجبته: «الحمد لله، أنا في نعيم الله أتقلب».

فدُهش للغتي الجديدة، وعلّق ساخراً:

«ما يخصّك كن لحية وعراقية»[24] وانفجر ضاحكا.

ونهاني عن هذه اللغة التي لا تليق بي، وقال بأنه يعرفني ويعرف ماضيّ الماجن، وعرض عليّ الذهاب إلى بستانه، فكلّ شيء هناك في انتظاري «الشواء والخمرة والنساء». وعرفت منه أنه تعرّف على أصدقاء جُدد يجري المال في أيديهم مثل التراب، وعَرض عليهم خدماته المقدسة فأصبحوا زبائنه، في بستانه يلتقون يأكلون ويشربون ويزنون، وأخبرني أنه طوّر خدماتهِ، وركزٍ خيمًا بلاستيكية في بُستانه، وبنى مقهى صغيرا، وحوضا وملأه ماءً، وزاد من خضرة البستان بزرعه لبعض الأشجار ذات الورود المختلفة، ثم قال:

«تجي اليوم تِلقح؟».

لا أخفي أني لسعت من الدّاخل، كأنه ألقي في جوفي

24 العراقية: قبعة في شكل نصف كرة.

جمرة، وهمّت غريزتي أن تستجيب لندائها، لكنّي قهرتها، وأمسكت نفسي، وتذكرت كلمة إسلام (تذكر دائما أن الله معك، بل في قلبك...) فقلت لمسعود الضبع: «كيفاه نلقح، وهو في قلبي..».

مُلئ وجهه بالاستفهام، واكتفى بالقول وهو يُوَليني ظهره «مجنون هذا..؟»

أكملت طريقي إلى البيت، وفي داخلي شيء يرقص.

اشتقت إلى إسلام وإلى الحاجة نعيمة، فقررت أن أراسلها على الطريقةِ القديمة، فكتبت لهما رسالة وأرفقت الرّسالة مبلغا من المال الذي سأكفل به تلك اليتيمة. ونصّ الرِّسالة هو:

بسم الله الرّحمان الرّحيم

السّلام عليكما ورحمة الله.

أسأل الله أن تجدكما رسالتي في خير وعافية.

كيف حالك وكيف حال أمك الحاجة نعيمة الطيبة جدا؟ إنّ الذي دفعني إلى الكتابة إليك هو شوقي لذلك الزمن الجميل الذي قضيته بينكم، فلم أكن أدري أن بعض الأزمنة لها فعل عميق في النفوس.

أودّ أن أخبرك بشيء ربما أفرحك، إن الكلمات التي

كنت تقولينها، والأشياء التي كنت تفعلينها، أثّرت فيّ كثيرا، وغيّرت فيّ كثيرا، ففي الأيّام التي قضيتها معكم كنتُ كالأرض المحروثة وكنتِ أنت تبذرين وتغرسين، ولحسن الحظ والأقدار لم تكن تلك الأرض يبابا. لم أشعر قبل أن أعرفك أن الله قريب جدا، وهو في قلوب الناس إن تنبّهوا، وقد كنت أحسبه متعاليا يرقب الناس من بعيد.

والحقيقة أني أحببته كثيرا، فقد وجدته أحسن مما ظننتُ، ولازلت أجده أحسن مما أظن، وأنا على يقين أنّ حُسْنه لا ينتهي.

أمّا الصّلاة له، فلازلت أذوق حلاوتها حتى تعجبتُ كيف كنت أعيش دونها، فحين أدخل في الصّلاة أحسّ أنيّ بين يدي الله، فأمرع كيفما أشاء، وأنتشي بالقرب منه، وتلسع قلبي لذّة قدسية كأنها هبطت عليّ من فوق سبع سماوات، فتعيدني روحا نقية لا شية فيها، وكنتُ كلّما صليت صلاة، تجددت روحي فكأنها لا تبلى أبدا.

أمّا صلاة الليل فقد واضبت عليها منذ أسبوعين ولا أدري كيف أصف لكِ حالي معها، فإني حين أجهر بصوتي عندما أقرأ، أحسه شقّ طريقه إلى السّماء يترنّح بين الملائكة التي تسمعه وتتلذذ به، ولازلت أقيم

ركوعها وسجودها حتى أحسستُ أنّ الدنائس والمخَازي التي جمعها جِسدي قد فاضت منه وتطهّر، ففي كل ليلة كان شيئا منها يفيض حتى ما بقي منها شيء، أمّا القرآن فحين أقرؤه أشعر أنه يحّولني إلى شيءٍ مقدس، فقد كان يملؤني بالنور، وكانت حروفه تخرج من فمي فتطير بي في متاهات القداسة والنور.

وكلما فتحت كتاب القرآن ونظرت في حروفه وآياته، حضر في ذهني أنها طارت من الأزل لتستقر بين يديّ لكي أرتلها، وأستمتع بالنور والقداسةِ الكامنتين فيه، ولا أزال أعُبّ منهما حتى تركح الرّوح وتسيل العين دمعها، ولازلت على هذا الحال حتى تيقنت أن الذي أفعله تشتهيه الرّوح، وما عرفت ذلك إلاّ حين عصيت الجسد وما يشتهي.

أحبّ أن أقول لك إني عشِت أربعِين سنة من الخواء والرّماد، وها أنا أعيش طورا جديداٍ من حياتي، ولازلت على عتبته، وأحِس أني دخلتِ وجودا جديدا، فقد كِنت قبل هذا مسخا وخواءً ورمادا، وها أنا أعود إنسانا بين جوانحه روح يعتني بها فتعتني به، وكلّ ذلك الفضل بعد الله هو لك.

وقبل أن أختم رسالتي هناك شيء يجب أن أطلعك عليه، ولكن لم أستطع قوله الآن، لأن الحياء مازال

منقدحاً، لربما أستطيع أن أبوح به في رسالة أخرى، وإن أخذتني الأقدار إلى الله فإني أسألك العفو عني قبل الأوان، وإلاّ غضب الله مني، وأنا لا أحبّ أن أغضبه.

في الأخير، قبّلي رأس أمّك عني، واشكريها عن حسنِ ضيافتها لي، وقبّلي رأسها مرة ثانية لأنها أنجبت بنتا مثلك.

تحياتي: 2014/01/24

وادي سوف

بعثتُ الرّسالة وانتظرت أيّاماً كي تردّ، وكنت خائفا من شيء واحد، هو أن تطلب مني البوح بذلك الشيء الذي استحييتُ من ذكره.

في هذه الأيام اعتنيت كثِيرا بالمقالات التي أكتبها، فقد كثرُ الإعجاب بها، وكثرت الرّدود عليها، وزاد قراء الجريدة التي أكتب فيها، وقد كنتُ أكتب المقال في المسجد بين صلاة المغرب والعشاء فإنه يحلو لي في ذلك الوقت وفي ذلك المكان الكِتابة، لأني أحس بالسّكينة فتخرج مني الجمل متِناغمة مرسلة، وكأنها جدولٌ لا يوقفه شيء، وكنت أقدِّم في مقالاتي قيم السلم والصّلح والتعقّل على الانفعال والعداوة وغيِرها من القيم التي تفرّق أكثر مما تجمع، فلقيت قبولا من

النـاس، لأن أغلب النـاس فـي عميق أنفسهم ميّالون للسِّلم، إلاّ أن الحيـاة وشيـاطينهـا هـم الذين يفسـدون سـرائرهـم ويوغرونهـا فتثـور هوجـاء ممحوة العقـل.

وفـي أحايين قليلة كنت أكتب المقالات الرّوحيـة، التي تعتني بالرّوح وما يدور في فلكها، وكانت فكرة المقال تتقدح في صدري حين أكون قائماً لله في جوف الليـل، تتقدح كالشرارة ثـم تكبـرُ شيئـا فشيئـا حتى تكونَ نـورا عظيمـا، فـلا أملك إلاّ أن أقذفِـه من جوفي حروفـا وكلمـات وجمـلا، فتكون مقـالاً فـي جريدة يقرؤهـا النـاس فـي الصّبـاح.

وذات يوم عدتُ إلى البيت من العمل فقالت لي أمي:

«جاك بلوف اليوم»[25]

فتحتُه وقرأتُ:

بسم الله الرّحمان الرّحيم.

السّلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته.

كيـف حالك يا سي حسن، وكيـف حال أهلك، ووادي سوف كلّهـا، برمالهـا المذهّبـة ونخيلهـا المعمّدة وسمائها الزرقاء، وشمسهـا اللافحة.

---

25 جاءتك رسالة اليوم.

لقد سرّني الذي قلته لي في رسالتك، بل طرتُ فرحاً، لأنه إذا اقترب أحدٌ من الله وذاق حلاوة قربه إلاّ وانقذف في قلبي حلاوة لا توصف.

إن الـكلام الـذي سمعته منـي وأثّـرَ فيـك، مـا كنـتُ أتكلّفه إنمـا كان يخـرج منـي سليقة، وكـأن أحـدا يُمليه عليّ، ولا أخفي عليك أني حين أنهي ذلك الكلام أتعجب مـن نفسـي كيـف أخرجته، فلسـت معتادة على مثله، واستقر في ذهني أن الذي كنت أقوله هو شيء يشبهُ الوحي أجراه الله على لساني.

ولا أنْسـى أن أبارك لـك علـى الوجود الجديد الـذي دخلته، وأقول لك: عِشْ كلّ لحظةٍ فيه كأنك مفارِقه، أشعِلْ كلّ حواسِك ولا تترك شيئا يفوتك، واذهب فيه إلـى أقاصيـه، وغـرْ فيه حتـى الأعماق، واعلم أنه منداحٌ حتـى لا أقاصي لـه، وغائـر حتـى لا عمق لـه.

تقلّبْ - يـا سـي حسـن - فـي هـذا الوجـود، وعش كلّ مناحيه فإنك إن تقلّبت وعشت أكثر، عرفت عظمة خالقه أكثر، وإن كنت عِشتَ أربعين سنة لجسدك، فـردّك مسبِخا وخواءً ورمادا، فعش مـا بقي من حياتك لروحك وانظر مـا هي صانعةٌ بك.

أمّا الشيء الـذي أثرت بِه فضولي وتخجل أن تبوح به، فإني منتظرة منك رسالة تخبرني فيها عنه، فالنساء - يا

سي حسن – لا يصبرن على الأسرار، وإن شئت أن تثير امرأة وتخضعها، فأخبرْها أنك تملك لها سرا، وتمنّع عن البوح به.

أمّا أمي فإنها تسلّم عليك كثيراً، وقالت لي: قولي له أني اشتقت إليه وإلى طلعته وإلى صوته، وهي تتمنى أن تزورنا في الصّيف كي تتمتع بالبحر وتتجنب حرارة شمسِ وادي سوف، كما أنها تودّ أن تتعرف على أهلك واحدا واحدا.

أمّا أنا فمشتاقة إلى وادي سوف، أحس أنّ بقية حبلي السُّري[26] مرميا هناك ولا بدّ أن أجده.

في المرّة القادمة ابعث لنا بشيء من الرّمل، فقد أحببت أن أراه وأشمّه.

تحياتي من الحراش

2014/02/15

*****

كنتُ واضعاً إبهامي وسبابتي على ذقني وأنا أستمع إلى أمي وهي تصول وتجول في موضوع واحد وهو

26 يُرمى بقية الحبل السُّري للوليد في المكان الذي يريد له والده أن يفلح فيه كالمسجد أوالمدرسة... وهي عادة جزائرية.

زواجي. تحدثتْ عن واجب الزواج، وفوائده، وتقاليده وأشياء أخرى نسيتها لكثرتها، وحين كانت تتحدث كان ذهني يجول في مكان آخر، يفتح أبوابا ويغلق أخرى، وحين أنهت كلامها قالت:

– ما رأيك؟

– موافق.

اتسعت حدقتاها، وسقط فكّها للأسفل كأن صلاحيته قد انتهت؛ فلم تتوقع مني الموافقة السّريعة، فقد اعتادت مني العناد وقساوة الرأس، ولم تملك نفسها فانطلقت زغرودة وصلت أطرافها إلى الجيران، وانزلق على خدّيها دمعتان سريعتان.

بعد يومين من التفكير المُنهك تجاسرتُ أن أكتب رسالة إلى إسلام، لأن الكلام الذي ستحويه هذه الرّسالة مختلف عن الكلام الذي كان في الرّسالة الأولى.

بسم الله الرّحمان الرّحيم.

السلام عليكما ورحمة الله.

أحييك من وادي سوف التي أحببتِها من كلام سمعته منّي ومن أمك، وقد يحدث الحبّ لمجرّد الكلام كما حدث معي، فللكلام سحره وسلطانه.

سأطلعكِ على الشيء الذي أخفيته عنك، فلا بُدّ للحياة من يوم تنثر فيه أسرارها، لأنها جُبلت على ذلك.

كنتُ عاصيا أشبع جسدي وأُجيع روحي، حتى غدوت مسخا مملوءً قلبُه قيحا وسوادا إلاّ مقدار خردلٍ بقي يضيء في خفوت، وشاء الله لذلك الخردل المضيء أن يقوى نوره ويعمر القلب فيطرد القيح والسواد. وذات ليلة نظر الله لي نظرة اجتباء، فبعث لي بمنام غريب يقول فيه لي: «بلغ إسلام المرادي: كل شيء في حينه، الله لا يهمل أحدا، حان حين القدر، جفت الأقلام وطويت الصّحف».

نكرْت ذلك ووليته ظهري، إلاّ أنه تكرر معي حتى أجبرني على السفر، وقبل أن أسافر استفتيت شيخا فنصحني بالسّفر، وقال لي «ربما اشتاق الله إليك».

حين عثرتُ عليك لم أستطع أن أخبرك بذلك المنام الذي جررته معي من وادي سوف إلى الحرّاش، لأني استحييت أن تصفيني بالهُبل، فانتحلتُ صفة الصّحفي المحقق، وحين رأيتك وسمعت منك ذلك الكلام الذي سكن مغارز الروح وأخذ يتمدّدُ حتى عمرها، دلفتُ وجودا جديدا عامرا بالنور.

ما أجمل الحياة وما أعجبها؛ أجيئكِ من الصّحراء أحمل في كفيّ مناما لا أفهمه، فأرجع وقد مُلئت

ومُلئتْ كفّاي نورا! واستبدلت القفار التي كانت تسكنني بقطع من رياض.

وربما يزيدك عجبا وضحكا أني لم أستطع فهم المنام إلى الآن، فقد بقي عصيّا مغلقا، كلما غالبته غلبني، وكأنه ينتظر من يفتح غلقته.

إسلام، أعتذر كثيرا على الكذبة التي لفقتها، لأن الذي حصل كان أكبر من أن أطيقه.

أمّا الرّمل الذي كنتِ قد طلبته مني، فلن أبعث لك منه بشيء تعالي أنتِ واسكنيه، إن رضيت بي زوجا.

تحياتي السّوفية

2014/02/20 م.

حين وضعت الرّسالة في البريد كنتُ كأني وضعت روحي معها وبقيت أجوف دون روح؛ كنت خائفا من ردّها كثيرا، أن تكتشف أني كنت كاذبا منتحلا وطالبا الزواج منها. ضدان لا يلتقيان، كالذي أراد أن يجمع الماء والنار في إناء واحد.

انتظرتُ ردّها حتى استطال بي الزّمن وتمدّد كما شاء أن يتمدد، فأيقنت بعد أن نفد مني الصّبر أني مدفوع ببابها، لا حظّ لي معها، فتجالدت على الأقدار

التي لم تكن في صفي، وهربت إلى ربّي عند الليل أناجيه، أتدلّل عليه تارة، وأستجلده أخرى، حتى قذف في قلبي الطّمأنينة فارتحتُ.

بعد يومين من هذا ذهبت إلى البريد أريد سحبِ المال، وقبل أن أخرج منه، ناداني موزّع البريد ملوحا بيديه التي تحمل رسالة: «سي حسن، بريّة عن جالك»[27].

بسم الله الرّحمان الرّحيم.
السّلام عليك يا سي حسن.

أحييك على صدقك، الذي لا يَقْدِرُ له إلاّ من رزق مروءة، وأعذر لك اِنتحالك. فالقلب عنك راضٍ.

الآن أنا التي سأقول لك شيئاً أخفيته عنك وليبق سرًّا بيني وبينك:

أخبرتك أني كنت أناجي الله، وأتدلّل عليه، وذات مرّة تدللت عليه بشيء، فقد طلبت منه أن يزوجني برجُل يكون تائها في معاصيه ومخازيه فيُهدى على يديّ. وقد كنت استبطأتُ ذلك، فردّ عليّ معاتبا في المنامِ الذي رأيتَه أنت «كل شيء في حينه، الله لا يهمل أحدا، حان حين القدر...»

أتعرف شيئاً، أمي كان لها فراسة قوية، فقد أخبرتني

27 سي حسن رسالة لك.

أنها حين أغمي عليها واِستفاقت فحملناها أنا وأنت وكانت تنظر إلينا بالعدلِ، نظرة لك ونظرة لي، قالت لي دون مقدمات حين استفردت بي في الغرفة: «هو زوجك يا بنيّتي».

صدّقتُها وفرِحتُ مرتين؛ مرّة لأن مسارك المعوجّ سيستقيم، ومرّة لأني اِشتهيتك عندما رأيتك.

أنت – إذن – الرّجل الذي اختاره الله لي من زخم الرّجال، لا شيء أجمل من أن يختار الله لك.

أمّا الّرمل فبلّغه أني قادمة إليه.

تحياتي الحراشية

2014/03/13م.